رسائل جغرافية

الدراسة الميدانية في مجال الجغرافيا ودور علماء الجغرافيا المسلمين في تطورها

د. عبدالله بن أحمد بن سعد الغامدي

٢٩٩

صفر ١٤٢٦ هـ
أبريل ٢٠٠٥ م

دورية علمية محكمة تعنى بالبحوث الجغرافية
يصدرها قسم الجغرافيا بجامعة الكويت والجمعية الجغرافية الكويتية

الاشتراكات

في الكويت
للمؤسسات ١٢ ديناراً كويتياً (سنويا)
للأفراد ٦ دنانير كويتية (سنويا)

خارج الكويت
للمؤسسات ١٥ ديناراً كويتياً (سنوياً)
الأفراد ٧,٥ دينار كويتي (سنوياً)

الجمعية الجغرافية الكويتية

ص.ب: ١٧٠٥١ الكويت ـ الخالدية
الرمز البريدي: 72451

رسائل جغرافية

٢٩٩

الدراسة الميدانية في مجال الجغرافيا ودور علماء الجغرافيا المسلمين في تطورها

عبدالله بن أحمد بن سعد الغامدي

صفر ١٤٢٦ هـ
ابريل ٢٠٠٥ م

طبعت بدعم كريم من مؤسسة الكويت للتقدم العلمي

بسم الله الرحمن الرحيم

الدراسة الميدانية في مجال الجغرافيا ودور علماء الجغرافيا المسلمين في تطورها

المقدمة

تشكل الدراسة الميدانية field work جزءا مهما من منهج البحث الجغرافي، وتعد الجغرافيا من أكثر العلوم استخداما لطريقة البحث الميداني. ولا يوجد تعريف دقيق لمنهج وطرق البحث الميداني، ولكنها تعني جمع المادة العلمية الجغرافية الخام (بيانات ومعلومات) من منطقة البحث، فالدراسة الميدانية في الجغرافيا هي أقرب ما تكون إلى كونها طريقة (Technique) دون أن تكون منهج بحث متكامل. وتعد الوسيلة الأولى (قديما وحديثا) للحصول على المعلومات الجغرافية عن المناطق والأقاليم، ولهذا عُني الباحثون في هذا العلم بمسألة تطوير طرق وأساليب العمل الميداني وأدواته.

شهدت المعرفة الجغرافية في عصر ازدهار الحضارة الإسلامية توسعا كبيرا، اتسم بثلاث خصائص هي:

١ - عناية علماء المسلمين بتطوير مختلف العلوم والمعارف التي ورثوها عن الحضارات السابقة، لا سيما حضارة الإغريق، وخصوصا في مجال علوم الفلك والطبيعة والرياضيات.

٢ - إعطاء عناية خاصة للدراسات الجغرافية الإقليمية (المسالك والممالك) لتلبية احتياجات المجتمع في هذا الجانب، خصوصا بعد اتساع رقعة بلاد الإسلام في قارتي آسيا وإفريقيا.

٣ - الاهتمام بتطوير مناهج وأساليب البحث العلمي الجغرافي مع مرور الوقت. وقد ترتب على ذلك تكون نتاج علمي جغرافي إسلامي كبير، لم يسبق له مثيل لدى أي أمة من أمم الأرض السابقة، حفظ بعضه واندثر وفقد البعض الآخر منه، وبقيت المادة العلمية الجغرافية التي أنتجها علماء الجغرافيا المسلمون من خلال البحث الميداني والتأليف هي المكون الأساسي لعلم الجغرافيا، حتى أواسط القرن التاسع عشر الميلادي ومازالت المعارف والمعلومات الجغرافية التي خلفها العلماء المسلمون تشكل جزءا بارزا في العلوم الجغرافية في الوقت الحاضر..

موضوع البحث :

إن مما يميز المعرفة الجغرافية الإسلامية، أن أغلبها كان حصيلة بحث ميداني وتجارب وخبرات مباشرة، عايشها الكتاب الجغرافيون المسلمون، واعتمدوا عليها في تأليف مصنفاتهم الجغرافية، والقليل منها هو الذي يمكن اعتباره مادة علمية منقولة عن مصادر سابقة، مما يؤكد أهمية البحث الميداني ودوره الذي مارسه علماء الإسلام، وتمكنوا عن طريقة من إيجاد هذا التراث العلمي الضخم، ويدفع إلى الاعتقاد بأن طرق وأدوات البحث الميداني قد شهدت تطورا في جوانب مختلفة على أيدي علماء الجغرافيا المسلمين، ومن هنا فإن هذا البحث يهدف إلى معرفة خصائص الدراسة الميدانية في مجال الجغرافيا عند علماء المسلمين، والدور الذي أسهم به أولئك العلماء في تطوير أساليب البحث الميداني وطرقه.

الإطار الزمني والمكاني للدراسة :

تتناول الدراسة في هذا البحث مكانة الدراسة الميدانية ودورها في البحث والمعرفة الجغرافية، في فترة ازدهار العلوم عند المسلمين، من القرن الثالث إلى القرن السادس الهجري تقريبا، (القرن التاسع إلى القرن الثاني عشر الميلادي) وتغطي مكانيا جميع البلدان التي تناولتها كتب الفكر الجغرافي الإسلامي في قارات آسيا وإفريقيا وأوروبا والبحار والمحيطات المجاورة لهذه القارات .

الدراسات السابقة :

تتخذ الدراسات السابقة التي تناولت موضوع الفكر الجغرافي الإسلامي ثلاثة اتجاهات رئيسية هي:

أ - الدراسات العامة: وقد تناولت تطور الفكر الجغرافي عند المسلمين، والمعرفة الجغرافية عند علماء السلمين بشكل عام.

ب - الدراسات الخاصة بأعلام الجغرافيين المسلمين وآثارهم العلمية، سواء كان ذلك في شكل دراسات عامة لجميع أولئك الرواد، أو دراسات خاصة لبعض منهم، ومن ذلك الدراسات التي تم إجراءها على أعمال كل من أبي الفدا وابن حوقل، وابن بطوطة والإدريسي.

جـ - الدراسات الموضوعية: وهي دراسات خاصة ببعض موضوعات الفكر الجغرافي الإسلامي، مثل الدراسات التي عنيت بموضوع الرحلات، والملاحة البحرية، وتطور علم الخرائط عند المسلمين.

ولا توجد دراسات تتعلق ببحث مناهج البحث عند علماء المسلمين بشكل عام، أو بطرق وأساليب البحث الميداني عندهم بشكل خاص، مما يعني أن هذا البحث يعد أول محاولة في سبيل بحث خصائص الدراسة الميدانية في مجال الجغرافيا عند علماء المسلمين، ودور أولئك العلماء في تطويرها.

أقسام البحث

يتكون البحث من مقدمة وسبعة فصول وخاتمة. اشتمل الفصل الأول على دراسة موجزة لأهم أعمال وتجارب الدارسة الميدانية لدى الأمم السابقة على حضارة الإسلامية، ويُعرف الفصل الثاني بمكانة الدراسة الميدانية في البحث الجغرافي عند علماء المسلمين. ودورها في النتاج العلمي الإسلامي عموما. بينما يناقش الفصل الثالث أهداف الدراسة الميدانية في عصر ازدهار الكشوف واتساع المعرفة الجغرافية عند المسلمين. ويتطرق الفصل الرابع إلى الطرق التي اتبعها علماء المسلمين من الجغرافيين في جمع بياناتهم ومعلوماتهم من الميدان، ويبحث الفصل الخامس البعد الجغرافي للدراسة الميدانية، المتمثل في تحديد الأقاليم والمناطق التي شملتها أعمال البحث الميداني وطبقت عليها الدراسات الميدانية. ويعالج الفصل السادس صفات الباحث الميداني المسلم، ودور تلك الصفات في إنجاح عملية البحث العلمي الجغرافي، بينما يختص الفصل السابع بإلقاء الضوء على أهم الصعوبات والعقبات التي قابلت الدارسين الميدانيين، وكيف تعامل معها علماء الجغرافيا المسلمون. واشتملت الخاتمة على عرض عام لخصائص الدراسة والبحث الميداني في مجال الجغرافيا عند علماء الجغرافيا المسلمين، وما أسهم به أولئك العلماء في مجال تطوير أساليب البحث الميداني.

الدراسة الميدانية عند الأمم السابقة

مرت الأمم والحضارات السابقة على عصر الإسلام بالعديد من التجارب والخبرات التي أسهمت في تطور المعرفة الجغرافية بشكل عام، وسيقتصر الاهتمام هنا على تعريف موجز بأبرز وأهم الدراسات الميدانية التي كان لها دور بيّن في دعم المعرفة الجغرافية في تلك الفترات.

إن المتأمل في المحصلة العامة للمعلومات التاريخية الخاصة بتطور الفكر الجغرافي يلحظ بوضوح - أنه كانت لجميع أمم الأرض السابقة على عصر الإسلام إسهامات معينة، وبكيفية خاصة في مجال المعرفة الجغرافية وتطور الفكر الجغرافي، ويلحظ أيضا وجود دور ما للدراسة والنشاط الميداني في تطور، وربما ازدهار المعلومات الجغرافية لدى أي من تلك الأمم.

إن مما يميز الفكر الجغرافي لدى الأمم السابقة على ظهور الإسلام أمور عدة أهمها ما يلي:

١ - اختلاط المعرفة الجغرافية بكثير من المعارف الأخرى لاسيما في مجال العلوم الطبيعية، ومنها على وجه الخصوص علوم الفلك والرياضيات وغيرها. حيث تمثلت حالة تنوع المعرفة في تلك الفترات وكانت الدراسات الميدانية أسلوبا أو سلوكا مدّ وباستمرار جميع تلك المعارف بالكثير مما حصلت عليه من معلومات.

٢ - اشتمال تلك المعارف - إلى جانب الحقائق العلمية المتوصل إليها - على بعض المعلومات والتصورات الخرافية، والأساطير غير الواقعية في بعض الأحيان.

٣ - بروز الحاجة إلى الخريطة الجغرافية وظهورها ضمن مكونات العمل الجغرافي

منذ العصور المبكرة، باعتبارها وسيلة فاعلة في تصوير وتمثيل الواقع الجغرافي، ونموذجا يستعان به في تفهم طبيعة الأوضاع الجغرافية والحياتية للبلدان التي تمت دراستها. هذا مع العلم أن مستوى إعداد وجودة تلك الخرائط كان يتوقف على المستويات العلمية والفنية للمعدين لها وللإمكانيات المادية المتوافرة لهم عند إعدادها.

وتعد الحضارة البابلية من أقدم الحضارات التي شكلت مفاهيم علمية أصيلة، وتم الاحتفاظ بأجزاء منها أو العثور عليها ضمن بقايا التراث البابلي، وكانت العناية تنصب بدرجة أكبر على سبر أسرار الكون وتفهم خصائصه، وشبّه أولئك القوم الأرض بالقفة المقلوبة في إشارة إلى تحدب سطح الأرض، وينسب إليهم على وجه الخصوص التوصل إلى تقسيم اليوم إلى أربع وعشرين ساعة، والساعة إلى ستين دقيقة، والدقيقة إلى ستين ثانية، وإلى جانب ذلك كانت لهم دراسات وآراء واسعة في مجال الفلك، وتقسيم السنة إلى اثني عشر شهرا قمريا، والتعرف على فصول السنة الأربعة المرتبطة بالنظام الشمسي، كما استخدم البابليون نوعا بسيطا من المزولة الشمسية، وعرفوا نوعا من الساعات المائية في عمليات الأرصاد وتمكنوا بذلك من وضع نظام البروج السماوية (الفرا، ص ٣٠).

دعت الضرورات الحربية البابليين إلى أهمية التعرف على كثير من البلدان المجاورة لهم أو البعيدة - نسبيا - عنهم. كان يتم ذلك ضمن ترتيبات الدفاع عند التعرض لغزو خارجي، أو في إطار ترتيبات الهجوم عند التوجه إلى غزو البلاد الخارجية وفي مجال الحملات العسكرية البابلية يرد ذكر حملة " أسر حدون " الذي توغل في " ميديا " حتى بلغ جبل " ديمافاند " الذي اعتبره حدا نهائيا للعالم. كذلك ساد الاعتقاد بأن " نبوخذ نصر " اندفع تجاه الغرب حتى بلغ ما يعرف الآن باسم مضيق جبل طارق . (شريف، ص ٩٦) على أن هناك

حملات حربية أخرى مماثلة كانت سببا مهما في توفير الكثير من المعلومات الجغرافية للبلدان التي مرت بها أو البلدان التي وجهت إليها تلك الحملات العسكرية، وقد صاحب تدوين المعلومات عن البلدان المختلفة رسم العديد من الخرائط الجغرافية لتلك البلدان، و ذُكر بان السومريين - على سبيل المثال - رسموا الخرائط بهدف شرح حملاتهم العسكرية (الفرا، ص ٣٢) .

وفي وادي النيل حقق المصريون القدماء تقدما من نوع آخر، انسجم مع احتياجات السكان وأنشطتهم الاقتصادية إلى وجه الخصوص، إذ عنوا عناية خاصة بمسألة التقويم السنوي الشمسي، والسعي إلى معرفة خصائص المناخ في كل فصل من فصول السنة، وتوصلوا إلى معرفة المواسم والأوقات المناسبة للحرث والري والحصاد، واستندوا في ذلك إلى حركات النجوم والكواكب، حيث تمكنوا في ضوء كثرة التأمل في مطالع تلك الأجرام السماوية من بناء جداول زمنية، حددوا من خلالها ما يرتبط بمطلع كل كوكب أو نجم من ظواهر طبيعية، وما يناسبه من أنشطة اقتصادية زراعية أو غيرها، وقد أعانهم على ذلك ما تميزت به سماء مصر من الصفاء في أغلب أيام العام.

ولما كان الفيضان السنوي للنيل أهم حدث سنوي في الحياة المصرية، فقد تطلب ذلك التنبؤ بوقوعه، فتم ذلك بطريقة فلكية، ذلك أن القدماء المصريين لاحظوا أن مياه الفيضان كانت تبدأ في الارتفاع كلما ظهر النجم اللامع البراق سوزس (SOTHIS) شرقا قبيل طلوع الشمس، (سارتون، ص ٨٨) وهو نجم الشعرى اليمانية، وكان أحد الوسائل التي تمكن بها أولئك القوم من معرفة طول السنة الشمسية حيث حسبت الفترة التي تقع بين ظهور ذلك النجم مرتين متتاليين فبلغت (٣٦٥) يوما وجزءا من يوم. ونظرا لرغبة قدماء المصريين في أن تكون للسنة أيام محّددة دون كسور يومية، ولتسهيل حساب أيام السنة، توصلوا بمرور الوقت إلى طريقة عملية لحساب السنة الشمسية، فجعلوا أيام السنة في كل

ثلاث سنوات (٣٦٥) يوما، وأيام السنة الرابعة (٣٣٦) يوما. ولم تكن تأملات ومراقبة خبراء المصريين ومتابعاتهم للظواهر الطبيعية وعناصر البيئة من حولها مقتصرة على رقعة الأرض التي يقيمون عليها، بل ترد أنباء تخبر بخروج البعض منهم إلي خارج الديار المصرية بهدف الكشف والتجارة أو الحرب بل ولمعرفة مصادر قدوم الجموع الغازية، والعمل على الوقاية منها.

اتخذت تحركات قدماء المصريين الخارجية وهجراتهم مسارين رئيسين - بحسب ما تورد المصادر المختلفة - أولهما كان باتجاه الجنوب مع مجرى نهر النيل. ومع أن التحركات عبر هذا المحور كانت تهدف بالدرجة الأولى إلى حماية مصر من الاعتداءات المتكررة القادمة من بلاد النوبة، إلا أنه يمكن اعتبارها بدايات مبكرة للكشف الجغرافي عن أعالي النيل وتقصي منابعه، وفي رأي البعض فأن معرفة المصريين القدماء بالنيل كانت تقف عند حد لا يكاد يتجاوز درجة عرض مدينة الخرطوم الحالية (شريف، ص ٧٩).

أما الاتجاه الآخر للتحركات الخارجية لقدماء المصريين فقد تمثل في تلك الرحلة الكشفية الكبرى التي طافت حول القارة الإفريقية في عهد الملك نخاو(٦٠٠-٥٩٤ق.م) وكانت بمثابة أهم إنجاز جغرافي في ذلك الزمن السحيق، وقد استخدم نخاو بحارة فينيقيين للقيام بهذه الرحلة البحرية الكشفية، التي ذكرها المؤرخ الشهير هيرودوت (الفرا، ص ٦٢). وهي رحلة دارت حول مصداقيتها الكثير من الشكوك، لعل من أهم جوانب القصور فيها ضحالة المعلومات التي وفرتها عن البلاد والمحيطات التي مر بها الرحالون. إلا أن مجرد ذكرها يعد حافزا للتفكير في الطواف حول القارة.

ولا يشك في أن المصريين القدماء قد أجروا تحركات مماثلة في الأجزاء القريبة من موطنهم، فيشار إلى أن مصر القديمة أرسلت البعثات لكشف الجزء الجنوبي من حوض النيل وارتياد الصحراء الشرقية والليبية وشبه جزيرة سيناء،

وتيسيرا لنقل التجارة من داخل البلاد إلى البحر الأحمر حفرت قناة (سيزوستريس) بين النيل وذلك البحر، بقصد الملاحة النهرية والتجارة بآن واحد، وكانت تمتد من فرع دمياط إلى البحيرات المرّة ومنها إلى السويس، وفي عهد الملكة حتشبسوت وصلت تجارة مصر إلى بلاد أوفير وجنوب الجزيرة العربية، (حميدة، ص ٢٢) .

وفيما يختص بمدى اتساع أفق المعرفة الجغرافية عن أقطار العالم فقد عرف المصريون البلاد القريبة والمجاورة، وبخاصة الشمال الأفريقي وشرق البحر المتوسط، وبلاد الشام والعراق. (الفرا، ص ٣٩).

وُصف الفينيقيون بأنهم شعب صغير قدم من سواحل الخليج العربي حوالي العام (٢٢٠٠ق.م) وانتشروا في هامش ضيق من الأرض محصور بين جبال لبنان والبحر واستوطنوا بها، وكان البحر يمارس جاذبية قوية عليهم، فقد كان من السهل عليهم أن يبنوا مراكب كبيرة مسطحة الظهر وشراعية بفضل أخشاب غابة الجبل (المصدر السابق، ص ٢٣).

إن توفر إمكانيات وفرص الملاحة قد دفعت بالفينيقيين إلى زيادة نشاطهم البحري وتنمية تجارتهم الخارجية، والذهاب إلى أماكن بعيدة عن موطنهم لهذا الغرض. وذلك إلى ما بعد البحر الأحمر شرقا، والبحر المتوسط غربا. فمن ميناء العقبة اتجهت السفن بين الهند وفارس والسواحل الشرقية لإفريقيا، حيث عرف الفينيقيون باسم العرب، وسمي البحر هناك باسم (بحر العرب)كما سمي الساحل الشرقي لإفريقيا باسم (السواحل) ولا يزال هذا الاسم حتى اليوم (شريف، ص ١٠٩).

وفي البحر المتوسط اجتازت السفن الفينيقية مضيق أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق) باتجاه المحيط الأطلسي، وكان ذلك سببا في كشف الساحل في

غرب إفريقيا. ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل امتد النشاط التجاري للفينيقيين إلى داخل القارة الإفريقية، وقيل إنهم اضطلعوا بنقل التجارة في إفريقيا عبر الصحراء الكبرى حتى أواسط النيجر. وبالرغم من اتساع معرفة الفينيقيين بكثير من البلاد، شملت البلدان الواقعة ضمن حوض البحر المتوسط وساحل غرب إفريقيا، وغرب أوروبا إضافة إلى بلدان حوض البحر الأحمر وبحر العرب. فإن ما تركوه من معلومات عن تلك المناطق يعد قليلا للغاية، هذا إلى جانب قلة عنايتهم برسم الخرائط، ويعزو البعض ذلك إلى حرص الفينيقيين على التكتم على أسرار مسالكهم التجارية والاحتفاظ بمصادر ثروتهم لأنفسهم (المصدر السابق، ص ١٢٠).

ازدهرت العلوم في بلاد فارس بتطور حضارة فارس نفسها، واقترن ذلك بتنامي نفوذ الإمبراطورية الفارسية التي بلغت أقصى اتساع لها في القرن السادس ق . م. تتسم المصادر الخاصة بالفكر الجغرافي عند الفرس بقلتها. ويمكن تلمس مدى ما وصلت إليه المعرفة الجغرافية عند الفرس من خلال عملين أساسيين هما: الازياج والرحلات الفارسية، كان من أهم الأزياج الفارسية المنقولة عنهم الزيج المسمى (زيج الشهريار أو زيج الملك)، وهو عبارة عن جداول فلكية وضعت في أواخر أيام الساسانيين، أما الرحلات الفارسية فكانت عبارة عن رحلات كشفية نفذها بعض الملوك بهدف التعرف على الخصائص الطبيعية والبشرية لبعض البلدان ومعرفة ما تتمتع به من موارد.

كانت أولى الرحلات، تلك الرحلة التي قام بها قمبيز (CAMBYSES) بعد إكماله فتح مصر، سار بها عبر نهر النيل بقصد البحث عن مناجم الذهب الذي أشيع حينذاك أنه يوجد في أثيوبيا .

أما الرحلة الثانية فقد سيرها دارا (DARIUS) في نهر السند، بهدف معرفة موقع مصب ذلك النهر، وقام بتنفيذ المهمة ضابط إغريقي يدعى سكايلاكس

(SCYLAX)، ذلك في عام (٥١٠ق.م) وكان من أهداف الرحلة الإبحار في بحر العرب والطواف بالجزيرة العربية التي كانت مجهولة من قبل الفارسيين (المصدر السابق، ص١٢٤) .

والرحلة الثالثة تم تجهيزها وإرسالها من قبل الملك اكزركس (XERXES) (٤٨٥ ـ ٤٦٥ق . م) وأوكل أمر قيادتها إلى أحد أبناء عمه، ويدعى ساتاسبس (SATASPES) وكان خط سيرها يبدأ من مضيق جبل طارق ويطوف حول ليبيا (إفريقيا من الغرب إلى الشرق، على عكس رحلة الطواف البحري التي قام بها الفينيقيون في عهد (نخاو). و ذُكر بأن ساتاسبس عاد ولم يكمل الرحلة بعد أن قطع مسافة كبيرة حيث وصل إلى منطقة الأقزام في غرب إفريقيا .

ويشير كراتشكوفسكي (ص٨٥- ص ٨٦) إلى أن المصنفات الفارسية لم تحدث تأثيرا كبيرا على العلم العربي، إبان نشأته سوى مصنف واحد فقط، لم يكن ذا قيمة كبيرة في حد ذاته لأنه يقوم على الأرصاد والجداول الهندية لا الفارسية ويعنى بذلك (زيج الشاه) أو (زيج الشهريار)، ويضيف أنه من العسير الحكم على أصله الذي لم يصل إلينا، ولكنه لعب دورا خطيرا في قالبه العربي، وقد أفاد منه عالم المراصد (ما شاء الله) كما وأن نظرياته لم تكن غريبة على محمد الخوارزمي ... ونال انتشارا واسعا على يد أبي معشر البلخي، وبشكل عام فإن الأزياج التي نقلها العرب عن الفرس توحي بأنهم كانوا على جانب كبير من التقدم في الأرصاد الفلكية، ودراسة الأجرام السماوية.

تمتعت الصين بمزايا جغرافية من نوع خاص، أهمها طبيعة موقعها الجغرافي في أقصى شرق قارة آسيا، وإحاطة البحر بها من الشرق والصحاري والمرتفعات الجبلية من الشمال والغرب، وإلى حد ما الجنوب الغربي، مما هيأ لها قسطا من الحماية والعزلة، وأدى ما توفر لبلادهم من موارد الثروات الزراعية وغيرها إلى انشغال السكان عموما بالتعامل مع معطيات بلادهم في الداخل، الأمر الذي

أغناهم إلى حد كبير عن التوجه إلى العالم الخارجي القريب أو البعيد عنهم، ومن ثم تنشيط عملية الاتصال الخارجي ومعرفة الكثير عنه.ولا يعني ما ذكر عدم قيام أنواع من الاتصال والحملات الخارجية بين الحضارة الصينية والبلدان الخارجية الأخرى،لا سيما مع بعض الجهات في القارة الآسيوية.

ويمكن اعتبار عملية الاستقرار والتعامل مع معطيات البيئة المحلية، سببا مهما في توجيه الفكر الفلكي والجغرافي الصيني آنذاك إلى معرفة العلاقة بين سطح الأرض و قبة السماء، فأساطيرهم تضمنت الإشارة إلى بيضة العالم، (The World Egg). وانفصال السماوات والأرض بعد أن كانتا رتقا أما ما يختص بمدى اتساع أفقهم الجغرافي عن العالم من حولهم فقد برز بشكل واضح عن القارة الآسيوية، حيث قام رحالة صينيون بجولات واسعة النطاق كشفوا خلالها عن كثير من معالم البلاد الآسيوية، وأضافوها إلى معلوماتهم الجغرافية (شريف،ص ١٣١).

وقد ترتب على رحلات الاكتشاف الصينية لقارة آسيا إنشاء طريق الحرير الشهير الذي كان يمر عبر صحراء غوبي (GOBI)إلى خوتان (KHOTAN) ويرقند (YARKAND)، وفرغانة، ومع الاستمرار في استعماله أوجدت إلى جانبه طرق أخرى بديلة ولنفس الغرض .

ولم تقف رحلات الصينيين عند البر الآسيوي بل اتجهوا في وقت لاحق في رحلات بحرية باتجاه الغرب. ويقال إن علاقة الصين بالغرب عن طريق البحر التي تمت في القرن السابع الميلادي، إنما نشأت أساسا بفضل شجاعة الملاحين (المسلمين)، الذين كانوا على خبرة عظيمة بركوب البحر ودراية بالمسالك البحرية الآمنة في المحيط الهندي، وما يتصل به من بحار، وأن أقدم إشارة إلى قيام السفن الصينية برحلات بحرية إنما وردت فيما كتبه المسعودي (المصدر السابق، ص ١٣٨).

إن من أهم الحضارات التي أسهمت في تقدم العلم عموما في فترة ما قبل

الإسلام، هي الحضارة الإغريقية أو حضارة قدماء اليونان، وقد توافرت للسكان في هذه البلاد جملة من العوامل التي ساعدت على ازدهار الحركة العلمية لديهم إلى مستوى عال.ومن هذه العوامل الموقع الجغرافي المتوسط، والشكل العام الذي تتخذه بلادهم وهو الجزر وأشباه الجزر، إلى جانب تنوع التضاريس، وتمتع البلاد باستقرار سياسي وازدهار تجاري، واعتناء مفكر يهم بموضوع البحث العلمي. وفي مجال الدراسة الميدانية عند قدماء اليونان يمكننا التعريف ببعض الأعمال والمحاولات التي كانت ذات أثر في مد المعرفة الإنسانية بشكل عام ببعض المعلومات النافعة، ومن أهم الأعمال الميدانية الجديرة بالذكر في هذا المقام تجربة إيراتوستين (ERATOSTHENES) (٢٧٥ـ ١٩٥ق.م) التي كانت تهدف إلى قياس محيط الأرض عن طريق حساب المسافة بين مدينتي أسوان والإسكندرية ومقارنة ذلك بما يقابلها من درجة زاوية ميل أشعة الشمس التي كانت عمودية على مدينة أسوان في ٢١ يونيو، ومائلة على مدينة الإسكندرية في نفس اليوم بزاوية مقدارها (١٢َ ٧ْ) أي سبع درجات وخمس الدرجة، وبمقارنة ذلك مع مقدار المسافة. الأرضية المستقيمة بين الموقعين توصل إيراتو ستين إلى حساب محيط الكرة الأرضية البالغ (٢٥٫٠٠٠) ميل، هذا على افتراض أن مدينتي أسوان والإسكندرية تقعان على خط طول واحد. وكان ذلك الرقم المتوصل إليه يقترب من الواقع إذ أن الطول الحقيقي لمحيط الأرض هو (٢٤٨٦٠) ميلا.

وتعد الرحلات التي أنفذها اليونان قديما من أهم الإجراءات التي اتخذت وتوافرت لليونانيين بسببها معلومات جديدة ومكثفة ـ نسبيا ـ عن العالم من حولهم، وقد مثلت الرحلات التي صاحبت فتوحات الإسكندر في الفترة من (٣٣٦-٣٢٥ ق.م) ـ أو التي تمت بعدها ـ أهم الرحلات التي أسهمت في فتح كثير من البلاد أمام اليونانيين القدماء، وجمع معلومات واسعة عنها - وقد رافق هذه الحملة أشخاص اهتموا بجمع الكثير من المعلومات الجغرافية عن الهند و سكانها وعاداتهم وتقاليدهم، كما تم جمع بيانات وحقائق كثيرة عن البحر الأحمر وشواطئ المحيط الهندي.

على أن هناك رحلات يونانية أخرى تم توجيهها إلى مناطق أخرى في بعض أجزاء العالم المعروف في ذلك الوقت، كان من ضمنها رحلة فيثياس (PYTHEAS) الذي طاف حول سواحل أوروبا الغربية والشمالية الغربية واكتشف مناطق في المحيط الأطلسي. حتى شمال بريطانيا، ووصل إلى البحار الشمالية، وكذلك " هانو " ((HANO القرطاجي الذي قام برحلة بحرية وسار بمحاذاة الساحل الغربي لإفريقيا في الفترة من (٤٨٥ - ٤٦٥ ق.م) ووصل حتى رأس "بالماس" في شرق ليبيريا حاليا (الفرا، ص ٤٨).

استطاع الإغريق أن يجمعوا معلومات جغرافية ذات فائدة عن مناطق واسعة من العالم، شملت الأراضي المرتبطة بسواحل جنوب وغرب أوروبا وسواحل شمال وشرق إفريقيا، بالإضافة إلى أجزاء متعددة من جنوب وغرب قارة آسيا، وامتد بحثهم إلى حوض نهر الكانج شرقا، وتتسم معلومات الإغريق عن هذه الأجزاء من العالم بالإيجاز كما أنها لا تخلو من المبالغات والمعلومات الأسطورية.

وعندما آل الدور إلى الرومان، قل نشاط البحث العلمي الميداني بسبب اهتمام الأخيرين بقضايا أخرى تصب في صالح بناء القوة العسكرية للدولة، ولم يحرص الرومان كثيرا على كشف بلدان وأقاليم جديدة، أو الاستزادة من المعلومات عنها، ومع بروز بعض الكتاب خلال هذا العصر إلا أن أكبر عمل يمكن نسبته إلى هذا العهد إنما يتمثل في عمل كل من سترابو (STERABO) وهو من مواليد عام (٦٣ ق.م) على ما يعتقد، و(كلوديوس بطلميوس الإسكندري) (CLAUDIUS PTOLEMY) وكلاهما نهلا من نبع الحضارة الإغريقية.

ألف سترابو عددا من الكتب بلغ مجموعها (١٧) كتابا بمسمى واحد هو "الجغرافيا" أما بطلميوس فقد تمثلت أهم مؤلفاته في كتابين مهمين هما "المجسطي" (ALMAGEST)، و (جغرافيا) اللذان جمع فيهما كثيرا من المعلومات

و الحقائق المستمدة من تراث الإغريق، وعن طريقهما اطلع علماء الجغرافيا المسلمون على خلاصة الفكر الجغرافي اليوناني. ومنهما - أيضا - اقتبس أولئك العلماء بعض النظريات والمناهج والمعلومات الجغرافية، وقد اعتبر بعض الكتاب تلك الأعمال العلمية في العصر الروماني، بمثابة ختام القصة بالنسبة للكشوف القديمة(أحمد، ص ٢٩) على اعتبار أن بقية العصر الروماني سادته سيطرة الكنيسة ورجالها على مختلف نواحي النشاط العلمي، طيلة الفترة المعروفة بالعصور الوسطى في أوروبا، والتي أمكن الخروج منها بعد أن أفاد الأوروبيون من معطيات الحضارة الإسلامية في كافة المجالات وتهيأت الفرصة لبداية عصر الكشوف الجغرافية الحديثة.

دور الدراسة الميدانية في تطور البحث الجغرافي عند المسلمين

شهد العالم الإسلامي بعد ظهور الإسلام وانتشاره واتساع رقعة البلاد الإسلامية، قيام نهضة علمية وحضارية لم يسبق للعالم أن شهد مثيلا لها، ساعد على ذلك سلامة العقيدة الإسلامية، وعناية الدين الإسلامي بجانب العلم، وحثه المسلمين على التزود منه، أضف إلى ذلك اتساع بلاد الإسلام، وتمتع البلاد الإسلامية بالاستقرار السياسي والأمني، إلى جانب وعي الخلفاء والولاة بأهمية التقدم العلمي وتوفير السبل المعينة على انتشاره وتطوره.

كانت المعرفة الجغرافية إحدى المعارف العديدة التي عمل المسلمون على تعلمها والنهوض بها، وقد تحقق لهم في هذا الجانب منجزات كبرى، تمكنوا خلالها من الإسهام في رقي العلم وتقدمه وإلى ذلك يشير كراتشكوفسكي بقوله: إن المكانة المرموقة التي تشغلها الحضارة العربية* في تاريخ البشرية لأمر مسلم به من الجميع في عصرنا هذا، وقد وضح بجلاء في الخمسين عاما الأخيرة فضل العرب في تطوير جميع تلك العلوم التي اشتقت لنفسها طرقا ومسالك جديدة في العصور الوسيطة ومازالت حية إلى أيامنا هذه - أعنى علوم الفيزياء والرياضيات والكيمياء والبيولوجيا، أما فيما يتعلق بالأدب الفني العالي فإن العرب قد أسهموا فيه بنصيب وافر يمثل جزءا أساسيا من التراث العام للبشرية، كما امتد تأثيرهم كذلك إلى عدد كبير من المصنفات والفنون الأدبية التي نشأت في بيئات غير عربية. (كراتشكوفسكي ص١٩) وحول المدى الذي وصل إليه مستوى الفكر الجغرافي الإسلامي خاصة، يورد نفيس أحمد ما يلي : وما أسداه

* يطلق بعض الكتاب على الحضارة الإسلامية مصطلح الحضارة العربية، كما يُسمى الجغرافيين المسلمين باسم الجغرافيين العرب، والصحيح استخدام مصطلحي الحضارة الإسلامية والجغرافيين المسلمين بدلا من ذلك .

المسلمون إلى علم الجغرافيا يميز مرحلة بذاتها في تاريخ الفكر الجغرافي والمعرفة الجغرافية، ويشمل آفاقا إلى درجة مدهشة،وله آثار بالغة المدى. ونستطيع أن نحصل على تقويم شامل لتلك الجهود بطريق أفضل إذا ما قابلناها بحالة الآراء والمعارف المعاصرة والسابقة عليها مباشرة. (أحمد، ص ٢٨)

توافرت عدة عوامل ساعدت على تنشيط عمل الدراسة الميدانية في مجال الجغرافيا لدى عدد ليس بالقليل من علماء المسلمين، وأدت بالتالي إلى نمو المعرفة الجغرافية عند المسلمين بشكل خاص، وبالإمكان تقسيم تلك العوامل إلى أربع مجموعات رئيسة على النحو التالي:

أولا العوامل الدينية: ويأتي في طليعتها دعوة الدين الإسلامي الناس إلى السير في الأرض، والنظر في عاقبة أمر الأمم السابقة، والأحوال التي كانوا عليها قال تعالى: ﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا هم أشد قوة وآثارا في الأرض ... الآية﴾ (سورة غافر، آية ٢١). وقال سبحانه ﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها .. الآية﴾ (سورة الحج، آية ٤٦) .

ويتصل بذلك رغبة كثير من العلماء في معرفة ما أودع الله الأرض والبحار، من مخلوقات تتباين خصائصها بتباين الأقاليم، والرغبة في معرفة الأماكن والمواقع التي جاء ذكرها في القرآن الكريم، والحديث الشريف، ولا سيما ما يتصل منها بأماكن العبادة والمزارات وغيرها.

ولكون الحج فريضة ملزمة لكل قادر فقد كان سببا لارتحال الناس إلى البقاع المقدسة في الجزيرة العربية، وكان منهم العلماء والفقهاء الذين اغتنموا فرصة الرحلة إلى بيت الله الحرام، ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، وقاموا بالكتابة عن البلدان التي مروا بها أو تنقلوا فيها. لاسيما أولئك الذين قدموا من

أقصى مشرق البلاد الإسلامية، أو أقصى مغربها وتقدم رحلة (ابن جبير) مثالا واضحا لذلك.

والارتحال في طلب العلم أمر ندب إليه القرآن الكريم، ورغب فيه ولا سيما بقصد التفقه في الدين، ولقد كانت تحركات طلاب العلم في أنحاء متفرقة من الوطن الإسلامي سببا في الكتابة عنه، والتعريف به، قال تعالى: " فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين .. الآية " (سورة التوبة، آية ١٢٢) ويندرج ضمن الرحلة في طلب العلم، الرحلة في سبيل جمع المراجع العلمية وترجمتها.

ثانيا- العوامل السياسية والإدارية: وكانت سببا في خروج السفراء والمبعوثين الذين بعثهم الخلفاء وحكام الولايات إلى بعض الأقاليم داخل وخارج الوطن الإسلامي، لإنجاز بعض المهمات العلمية والدينية والسياسية، وقد شكلت مذكرات أولئك السفراء والمبعوثين مصدرا مهما لمعرفة خصائص وأحوال البلاد والشعوب التي قاموا بزيارتها، أو التي مروا بها في أثناء رحلاتهم، ومن ذلك رحلة ابن فضلان، ورحلة أبو دلف الينبوعي. ومنها أيضا أسفار ورحلات بعض الأشخاص المكلفين بالكتابة عن الطرق والمسالك وعن أحوال الممالك لأغراض أمنية وإدارية وغيرها. وقد ساهم في ذلك عدد من الكتاب أمثال ابن خرداذبة، والبلخي، والسرخي، والجيهاني، وصاعد الجرجاني.

ثالثا : العوامل الاقتصادية: ويأتي في مقدمة ذلك النشاط التجاري، ومن ضمن الكتاب الذين ساعد اشتغالهم بالتجارة ـ إلى جانب اهتماماتهم العلمية - على إعداد المدونات عن بعض البلدان التي قاموا بزيارتها، كل من: سليمان التاجر ـ ابن حوقل - المقدسي - الحموي.

رابعا : العوامل الاجتماعية والثقافية: ومن أهمها السفر والترحال بهدف

السياحة. والتعرف على خصائص البلدان وعادات وتقاليد الشعوب والكتابة عنها، يشجعهم على ذلك التأثر ببعض الحكم والأقوال المأثورة التي تمجد السفر وتحث عليه، وقد رحل تحت تأثير هذه العوامل كل من الأصطخري - الإدريسي - الموصلي - ابن شداد - العبدري - المسعودي - الكناني - ابن بطوطة. وفي الغالب فإن ارتحال أي عالم أو باحث من المذكورين إنما يكون لأكثر من سبب.

يقسّم بعض الباحثين تاريخ الفكر الجغرافي الإسلامي إلى ثلاث مراحل تمثل كل منها فترة مميزة ذات سمات خاصة، وذلك على النحو التالي (ALAVI, p43).

١ - الفترة الأولي (٧٠٠م - ٨٠٠م) اتسمت بإحياء علوم اليونان والهند وفارس وترجمتها ومن أهمها آثار بطلميوس الإسكندري.

٢ - الفترة الثانية: (٨٠٠ م - ١١٠٠ م) وتميزت بالاتساع الكبير للمعرفة الجغرافية، ويمكن اعتبارها العصر الذهبي للعلم عامة. وهذه الفترة هي الفترة التي نشطت فيها حركة البحث والدراسة الميدانية. " ويبلغ تاريخ البحث الجغرافي النضج في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وكان الأصطخري وابن حوقل والمقدسي يمثلون درجة عالية في البحث المبني على الاختبار الشخصي، و المعرفة المكتسبة من السفر والتنقل و التأليف الجغرافي الناضج الذي استمر ثلاثة قرون " (الملا، ص ١٧٠).

٣ - الفترة الثالثة: (١١٠٠ م - ١٥٠٠ م) وهي فترة الذروة أو الأوج من الناحية العلمية، ولكنها اعتبرت فترة الضعف السياسي والفكري بالنسبة للبلاد الإسلامية، حيث نُقابل بعدد قليل من الكتاب الذين كانوا على درجة كبيرة من المستوى الرفيع والسمعة الحسنة. لاسيما كتاب الموسوعات والمعاجم الجغرافية والتاريخية وكتاب قصص الرحلات وغيرهم الذين اعتمدوا في إعداد مؤلفاتهم على كتب سابقة، ولكن في ضوء مناهج جديدة نوعا ما. ومن أمثال هؤلاء النويري - القلقشندي - الحموي - القزويني.

وقد ترتب على تقدم البحث الميداني الجغرافي عند المسلمين نتيجتان مهمتين، أصبحتا سمة من سمات الفكر الجغرافي الإسلامي، المنتمي لعصر النهضة العلمية الإسلامية وهاتان النتيجتان هما:

أ - اتساع نطاق المعرفة الجغرافية عن البلاد الإسلامية وما جاورها من بلدان وبحار في آسيا وإفريقيا وأوروبا، وتزايد إعداد الأبحاث والكتب المؤلفة في هذا الشأن.

ب - تطور الأسلوب الوصفي في البحث الجغرافي الذي ساعد عليه اتساع رقعة البلاد الإسلامية، والتوسع في إعداد وتأليف كتب المسالك والممالك، والمؤلفات الخاصة بنظام البريد، كما تطورت المناهج العلمية الأخرى ـ كالمنهج التجريبي، والمنهج الإقليمي ـ على أيدي علماء الجغرافيا المسلمين، وكان من نتائج ذلك وجود أعمال علمية ومؤلفات تخص علم الأطوال والأعراض، أو علم تقويم البلدان، وعلوم الجغرافيا الفلكية وغيرها.

إن مما يؤكد دور المشاهدة والمعرفة الشخصية المباشرة في تطور علم الجغرافيا ـ كدليل على دور الدراسة الميدانية برمتها في البحث العلمي - ما قاله ثلاثة من كبار علماء الجغرافيا المسلمين عنها وعن أهميتها بالنسبة لأعمالهم العلمية .. فابن حوقل يقول عنها " وأعانني على تأليفه تواصل السفر، وانزعاجي عن وطني، ثم يقول: "وقد ذكرت في آخر كتابي هذا كيف تعاورتني الأسفار، واقتطعتني في البر دون ركوب البحار، إلى أن سلكت وجه الأرض بأجمعه في طولها وقطعت وتر الشمس على ظهرها، ووصفت رجالات أهل البلدان، وأعيان ملوكها من ذوي السلطان وأهل الإمكان والمقدمين في كل ناحية وبلد، بالإحسان إلى ذكر النادرة بعد النادرة من محاسنهم، والفضيلة بعد الفضيلة من مكارمهم " (ابن حوقل، ص ٣-٤).

ويصف المقدسي أهمية الدراسة الميدانية و دورها في إنجاح عمله وإخراج مؤلفه فيقول: "وما تم لي جمعه إلا بعد جولاتي في البلدان ودخولي أقاليم الإسلام ولقائي العلماء، وخدمتي الملوك، ومجالستي القضاة ودرسي على الفقهاء، واختلافي إلى الأدباء والقراء، وكتبة الحديث، ومخالطة الزهاد والمتصوفين، وحضور مجالس القصاص والمذكّرين ... ودوراني على التخوم حتى حررتها، وتنقلي إلى الأجناد حتى عرفتها " .. (المقدسي، ص ١٦).

وياقوت الحموي يذكر ـ بعد أن سرد أسماء الكتب التي اطلع عليها ونقل منها، وأسماء الكتب التي سمع عنها ولم يطلع عليها ـ الآتي "وهذه الكتب المدونة في هذا الباب التي نقلت منها، ثم نقلت من دواوين العرب والمحدثين، وتواريخ أهل الأدب والمحدثين، ومن أفواه الرواة تفا ريق الكتب، وما شاهدته في أسفاري وحصلته في تطوافي أضعاف ذلك " (الحموي، ص ٢٢) .

إن رقي مستوى الأدب الجغرافي الإسلامي، قد لفت انتباه الكثيرين ممن عنوا بإجراء دراسات نقدية مستفيضة عنه، فالمستشرق كراتشكوفسكي يصف الأدب الجغرافي الإسلامي- العربي كما أسماه - بالتنوع الكبير في فنونه وأنماطه وغنى مادته، وامتلاكه لصور أدبية فنية ورائعة، ليس لها أي مثيل في أدب أي شعب معاصر للعرب. (كراتشكو فسكي، ص ٢٨) ويشير في مكان آخر إلى أن العيب الأساسي في الأدب الجغرافي العربي، هو في خضوعه للنظريات العلمية الموروثة عن الأوائل على الرغم من أن تجارب العرب العلمية كثيرا ما أدت إلى استكمال تلك النظريات وتعديلها، بل وحتى إلى صرف النظر عنها. كما رأى أن نظرياتهم العلمية لم ترق إلى مستوى تجربتهم العملية حيث قال " فهم على غرار اليونان قد ظنوا أن المعمور من الأرض ربعها فقط، وذلك في النصف الشمالي منها، وهو ما عرف باسم (الربع المعمور) كما اعتنقوا الرأي القائل باستحالة الحياة في البلاد الشديدة الحرارة أو الشديدة البرودة، وإذا كان اعتناق اليونان في أوروبا

الوسيطة لهذه النظرية الأخيرة له ما يبرره في عدم إلمامهم بالبلاد الواقعة إلى الجنوبي من خط الاستواء،فإن العرب بفضل رحلاتهم البحرية قد عرفوا جيدا تلك الجهات من إفريقيا، مثل زنجبار ومدغشقر حيث رأوا رأي العين عددا من المراكز المأهولة " (كراتشكوفسكي، ص٢٦).

وكان علماء المسلمين قد اطلعوا على ثقافات الأمم المختلفة كاليونان وبلاد فارس والهند، وأخذوا عنها الكثير من الحقائق والمعلومات، ومع أنهم عملوا على تطوير العلوم بعد ذلك من واقع خبرتهم وتجاربهم، إلا أن بعض النظريات اليونانية والأساطير الهندية أو لفارسية قد وجدت لها بين علماء المسلمين من حافظ عليها ولو لفترة من الزمن، ومن ذلك القول بأن المعمور من الأرض هو ربعه، وقسمة ذلك المعمور إلى سبعة أقاليم متباننة في خصائصها الطبيعية والبشرية، وفق معايير قبل بها أصحاب الفكر في زمن الإغريق خاصة، وأن ظروف كل إقليم تطبع على سكانه بعض الصفات والخصائص الحتمية، وفي حالات نادرة قبل بعض الكتاب المسلمين بتضمين مؤلفاتهم بعض الأساطير.

والقاعدة العامة هي حرص علماء المسلمين على البحث الجاد الدؤوب عن الحقيقة، وتحقيق الاكتشاف والتمكن، من إضافة معلومات وحقائق علمية جديدة في مختلف المجالات وتحمل المتاعب في سبيل ذلك. ولقد لفت هذا الأمر نظر بعض المستشرقين فأشار إلى أنه " لم يكن لليونانيين ذلك الصبر وطول الأناة اللذان كانا لتلامذتهم العرب. فلقد اتضح للزرقالي (١٠٢٨- ١٠٨٧م) في طليطلة بعد إجراء أكثر من أربعمائة وبحثين، بأن أوج الشمس لدى طلوع النهار، يعادل أوج الشمس لدى هبوط الليل..." (هونكه، ص ١٥١-ص١٥٢).

وكان لصبر علماء الجغرافيا المسلمين، واحتمالهم لمتاعب البحث وعناء السفر دور أساسي في نجاح الدراسة الجغرافية الميدانية،وهو ما سيتم بحثه في الفصلين الأخيرين من هذا البحث بإذن الله.

الفصل الثالث

أهداف الدراسة الميدانية عند علماء المسلمين

إن من أهم ما يميز النتاج الفكري الإسلامي في مجال الجغرافيا أنه في معظمه كان ثمرة بحوث ميدانية نفذها علماء المسلمين، تحققت لهم من قيامهم بالعديد من الرحلات التي مكنتهم من جمع كم هائل من البيانات والمعلومات الجغرافية وغير الجغرافية عن البلاد الإسلامية وغيرها.

أوضح كثير من علماء الجغرافيا المسلمين في مقدمات مؤلفاتهم، أو في مواضع متفرقة منها، الأهداف التي دفعت بكل منهم إلى إجراء دراساته الميدانية، أو إعداد مؤلفه الجغرافي، وكانت تلك الأهداف بمثابة أسباب ودوافع مباشرة أدت إلى إنجاز تلك الأعمال العلمية المهمة. وهناك القليل من المؤلفات التي خلت من وجود إشارات إلى الأسباب المباشرة التي أدت بأصحابها إلى إعدادها. وقد يكون سبب اختفائها راجعا إلى ضياع جزء أو أجزاء من المؤلف أو المؤلفات ذاتها.

يستدل مما بينه العلماء الذين أجروا الدراسات والأبحاث الميدانية أن إقدام الأغلبية منهم على البحث والدراسة والتنقل والارتحال كان لأكثر من هدف، فقلما نجد باحثا واحدا منهم يذكر أنه أجرى الدراسة الميدانية لغاية واحدة . ويمكننا إيراد أهم أهداف البحث والدراسة الميدانية عند علماء المسلمين على النحو التالي:

١ - يعد طلب العلم وإعلامه للناس في مقدمة الأهداف المباشرة، التي دفعت كثيرا من علماء المسلمين إلى الارتحال في أصقاع مختلفة من الأرض بهدف اكتساب العلم ونشره. كان العلامة ياقوت الحموي(٥٧٥هـ - ٦٢٦هـ) من أبرز من تحدث في هذا المجال، وأشار في مقدمة مؤلفه "معجم البلدان" إلى أن إقدامه

على تأليف المعجم لم يكن بقصد اللهو أو إمتاع النفس، كما أنه لم يكن بقصد ذكر شيء من خصائص الوطن من منطلق الحب له والتعصب له، وإنما كان ذلك من منطلق إيمانه بواجب تعلم العلم لكل مقتدر عليه وتعليمه للناس، مستدلا في ذلك بقول الله تعالى: " أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها .. الآية " (آية ٤٦، سورة الحج)، وبغيرها من الآيات التي تحث المسلمين على التدبر في مخلوقات الله، والاعتبار بما حدث في حياة الأمم السابقة، وأكد على أهمية معرفة خصائص كثير من المواقع والمواضع،لاسيما تلك الأماكن التي لها صلة بشعائر الدين الإسلامي وأحداث تاريخ الإسلام، ونصوص اللغة العربية وآدابها،وغير ذلك من الحقائق الجغرافية التي يتعين فيها التماس الخبر دون النظر، والنقل من أهل الخبرة في ذلك دون إعمال العقل فقط، إذ لابد من الدراية بحقائق تلك المواضع والمواقع دون الاعتماد على الرواية التي لا تستند إلى يقين .

ومن جملة الأسباب التي دعت الحموي إلى تأليف مصنفه أيضا، ما لاحظه من وجود كثير من الأخطاء العلمية لدى كثير ممن تكلموا في جغرافية البلدان والتعريف بالمواقع والمواضع المختلفة، ولاسيما فيما يتعلق بضبط أسماء الأماكن وتحديدها جغرافيا، ورأى خطورة تلك الأخطاء خصوصا عندما تكون متصلة بمواقع العبادة كمواقيت الحج والزيارة، أو أمور تقسيم البلدان بغرض تحديد أنصبة الخراج وأخذ الجزية، مما لا يعذر الفقهاء بجهله، ولا الأمراء والأئمة بعدم معرفته.

ويؤكد الحموي على أن حاجة العلماء من أصحاب التخصصات الأخرى إلى معرفة المعلومات الجغرافية الموثقة عن مختلف الأمكنة والأصقاع - لا تقل عن حاجة من أشار إليهم سابقا، ويشير مثلا إلى أهمية معرفة الأطباء بالخصائص الجغرافية للبلدان، وما يتميز به كل بلد من خصائص طبيعية تتصل بالهواء والماء

وكافة عناصر البيئة، وقد يكون الحموي بهذا أول من أشار إلى أهمية " الجغرافية الصحية " وهي من أحدث فروع علم الجغرافيا في عصرنا هذا.

أما عن السبب المباشر الذي ألح عليه لجمع المادة العلمية وإخراج مؤلفه الشهير " معجم البلدان " فقد كان بسبب سؤال وُجّه إلى الحموي عندما كان بمرو الشاهجان سنة (٦١٥هـ) عن موضع حُباشة السوق المعروف في الجاهلية فقال: " أرى أنه حُباشة، بضم الحاء، قياسا على أصل هذه اللفظة في اللغة " لأن الحُباشة: الجماعة من الناس من قبائل شتى، وحبشت له حُباشة أي جمعت له شيئا، فانبرى لي رجل من المحدثين، وقال: إنما هو حَباشة (بالفتح)، وصمم على ذلك وكابر، وجاهر بالعناد من غير حجة وناظر، فأردت قطع الاحتجاج بالنقل إذ لا معول في مثل هذا على الاشتقاق أو العقل، فاستعصى كشفه في كتب غرائب الأحاديث، ودواوين اللغات مع سعة الكتب التي كانت بمرو يومئذ، وكثرة وجودها في الوقوف، وسهولة تناولها، فلم أظفر به إلا بعد انقضاء ذلك الشغب والمراء، ويأس من وجوده ببحث وافتراء، فكان موافقا والحمد لله لما قلته، ومكيلا بالصاع الذي كلته، فألقي حينئذ في روعي افتقار العالم إلى كتاب في هذا الشأن . "(الحموي، ص ٩ - ص١٠).

وإذا ما انتقلنا إلى فئة أخرى من العلماء، فإننا نجدهم يفصحون عن أسباب أخرى دفعتهم لإجراء البحث إلى جانب تعلم العلم وإعلامه للناس، ومن تلك الأسباب رغبة العالم نفسه في ترك أعمال علمية تكون سببا في إحياء ذكره والانتفاع بها بعد موته، ومن أوائل الذين اعتنوا بهذا الأمر أبو الحسن على بن الحسين بن عبدا لله الشهير بالمسعودي، (٣٤٥هـ - ٩٥٦م) فقد أشار - في مقدمة كتابه " مروج الذهب " إلى أن مما دعاه إلى تأليف كتابة ذلك محبة تقليد العلماء، والتأسي بهم إلى جانب رغبته في أن يبقى له ذكر محمود وعلم نافع بعد وفاته، هذا إلى جانب حرصه على أن يسهم في تصحيح بعض المفاهيم،

والمعلومات، عن كثير من الحقائق الجغرافية والتاريخية، لاسيما وأنه سيعتمد على أسلوب البحث الميداني والتأكد من حقيقة الأشياء، بالوقوف على أغلبها. وفيما يلي جزء من النص الذي أورده بهذا الخصوص:

" وكان مما دعاني إلى تأليف كتابي هذا في التاريخ وأخبار العالم، وما مضى في أكناف الزمان، من أخبار الأنبياء والملوك وسيرها،والأمم ومساكنها - محبة احتذاء الشاكلة التي قصدها العلماء، وقفاها الحكماء وأن يبقى للعالم ذكر محمود، وعلم منظوم عتيد . فأنا وجدنا مصنفي الكتب في ذلك مجيدا ومقصرا، ومسهبا ومختصرا، ووجدنا الأخبار زائدة مع زيادة الأيام، حادثة مع حدوث الأزمان، وربما غاب البارع منها على الفطن الذكي. ولكل واحد قسط يخصه بمقدار عنايته، ولكل إقليم عجائب يقتصر على علمها أهله. وليس من لزم جهة وطنه وقنع بما نمى إليه من الأخبار عن إقليمه، كمن قسم عمره على قطع الأقطار، ووزع أيامه بين تقاذف الأسفار، واستخرج كل دقيق من معدنه، وإثارة كل نفيس من مكمنه.(المسعودي، ص٦).

وعندما نذهب إلى عالم وباحث ميداني جديد هو: أبو عبدا لله محمد بن أحمد البشاري المقدسي (٣٣٥هـ - ٣٩٠هـ)، فإننا نجده يكشف عن سبب آخر جديد، مثّل أحد الأهداف التي حدت به إلى تأليف كتابه " أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" فإلى جانب اقتدائه بالعلماء السابقين في الرغبة في إنجاز عمل علمي يُخلّد به ذكره، ويحفظ به خبره عبر العصور، لكي لا يدرس أثره، كما أنه يرى أن إخراج علم ينتفع به الخلق لهو عمل يطمح أن ينال به رضي الرّب. إلا أن من أهم الأسباب أو الأهداف التي انفرد بالحرص على تحقيقها المقدسي، إنما هو رغبته في أن يبحث في موضوع لم يسبق لأحد من قبله أن تصدى له، ويعني بذلك إخراج مؤلف خاص بجغرافية ديار الإسلام والتحدث عن أقاليمها المختلفة (المقدسي، ص ١٥ ـ ص ١٧).

وقد كشف المقدسي عن منهجه في البحث وطريقته في تقسيم موضوع دراسته : حيث قسم بلاد الإسلام إلى أقاليم محددة وناقش الكثير من الخصائص الطبيعية والبشرية في كل إقليم، ويبين أهمية مثل هذه الدراسة فيقول : "وعلمت أنه باب لابد منه للمسافرين والتجار، ولا غنى عنه للصالحين والأخيار إذ هو علم ترغب فيه الملوك والكبراء وتطلبه القضاة والفقهاء، وتحبه العامة والرؤساء، وينتفع به كل مسافر، ويحظى به كل تاجر" (المصدر السابق، ص ١٦).

وتواجهنا عملية البحث والاستقصاء في هذا الموضوع بما يقوله علماء المسلمين حيث يعربون في مقدمات كتبهم عن ميولهم إلى التأليف في فرع خاص من فروع علم الجغرافيا، ويكشفون عن شغفهم وولع كل منهم بذلك الفن، وأن حبهم له كان الهدف الرئيسي لقيامهم بالتأليف فيه، وخوض تجربة الدراسة الميدانية من أجله، هذا الفرع هو " جغرافيا المسالك والممالك" الذي ألفت فيه العديد من المؤلفات، واشتهر علماء الجغرافيا المسلمون بإبداعاتهم العلمية فيه. أول من أشار إلى هذا الهدف كان أحمد بن أبي يعقوب، الشهير باليعقوبي (ت سنة ٢٨٤هـ / ٨٩٧م)، الذي أكد أنه عني - منذ عنفوان شبابه، واكتمال نموه - بعلم أخبار البلدان والمسافات التي تفصل بينها، وقد ساعده على ذلك اعتياده السفر منذ صغره ومداومته على ذلك. ومما قاله في فاتحة كتابه المعروف بكتاب البلدان "قال أحمد بن أبى يعقوب أني عنيت في عنفوان شبابي، وعند احتيال سني وحدة ذهني، بعلم أخبار البلدان، ومسافة ما بين كل بلد وبلد، لأني سافرت حديث السن واتصلت أسفاري ودام تغربي ". (اليعقوبي، ص ١).

أما ابن حوقل (ت ٣٦٧هـ / ٩٧٧م) فيصرح بجلاء أن شغفه بقراءة كتب المسالك، وحبه في معرفة خصائص الأقاليم العامة والخاصة، ومقادير المساحات الفاصلة بينها كان هواية أحبها منذ صباه، وأنه مع كثرة ما قرأ في كتب المسالك فإنه لم يجد فيها كتابا مكتملا وكافيا لما يتطلع إليه هو، ولذلك عمد إلى تأليف

كـتابه (صورة الأرض) وحول هذا المعنى يورد في مقـدمة الكتاب المذكور ما يـلي: " وكان مما حضني على تأليفه، وحثني على تصنيفه، وجذبني إلى رسمه: أني لم أزل في حال الصبوة شغف بقراءة كتب المسالك، متطلعا إلى كيفية البين بين الممالك، في السير والحقائق، وتباينهم في المذاهب والطرائق، وكمية وقوع ذلك في الهمم والرسوم، والمعارف والعلوم، والخصوص والعموم، وترعرعت فقرأت الكتب الجليلة المعروفة، والتواليف الشريفة الموصوفة، فلم أقرأ في المسالك كتابا مقنعا، وما رأيت فيها رسما متبعا، فدعاني ذلك إلى تأليف هذا الكتاب.(ابن حوقل، ص٢-٣ ص).

وليس من المبالغة القول بأن من دوافع الدراسة والبحث الميداني عند علماء الجغرافيا المسلمين، الارتحال إلى بعض المناطق - قريبه كانت أو بعيدة - بهدف دراسة ظاهرة معينة دون غيرها، طبيعية كانت أو بشرية . وفي مدونات الرحالين ابن بطوطة (٧٠٣هـ - ٧٧٠هـ) شرح لإحدى الزيارات الميدانية لهذا الرحالين، حيث يذكر أنه عندما كان في بلاد الترك سمع بمدينة بلغار .وأنها تتميز بقصر الليل وطول النهار في أحد فصلي السّنة، وبطول الليل وقصر النهار في الفصل الآخر، وكان بينها وبين المكان الذي يقيم فيه عند أحد سلاطين الأتراك مسيرة عشرة أيام، وكيف أنه طلب من السلطان مده بمن يوصله إليها، وقد وصلها ابن بطوطة وأقام بها ثلاثة أيام، أشار بأن وصوله إليها كان في شهر رمضان المبارك، ووصف حالة قصر الليل الذي انتهي بمجرد أداء صلاة المغرب، وتناول طعام الإفطار، الذي أذن في أثنائه لصلاة العشاء مباشرة، وقد طلع الفجر مع نهاية أداء صلاة العشاء والتراويح والشفع والوتر، ويشير ابن بطوطة إلى حالة أخرى معاكسة لهذه الحالة، تحدث في فصل قصر النهار وطول الليل، وهو فصل الشتاء بطبيعة الحال ومما أورده في هذا " وكنت قد سمعت بمدينة بلغار فأردت التوجه إليها لأرى ما ذُكر عنها من انتهاء قصر الليل بها، وقصر النهار أيضا، في عكس ذلك الفصل، وكان بينها وبين محلة السلطان مسيرة عشرة، فطلبت منه من

يوصلني إليها فبعث معي من أوصلني إليها وردني إليه، ووصلتها في رمضان، فلما صلينا المغرب أفطرنا وأذن للعشاء في أثناء إفطارنا، فصليناها وصلينا التراويح والشفع والوتر وطلع الفجر إثر ذلك، وكذلك يقصر النهار بها في فصل قصره أيضاً وأقمت بها ثلاثا " (ابن بطوطة، ص ٢١٧).

إن ابن بطوطة في رحلته هذه كان يطمع إلى زيارة ما هو أبعد من مدينة بلغا، فقد سمع عن بلاد الظلمة، وهي البلاد الواقعة إلى شمال مدينة البلغار، وتبعد عن المدينة المذكورة أربعين يوما، وأراد الدخول إلى تلك البلاد التي يعمها الظلام إلا أنه عدل عن ذلك لعظم المؤنة فيه، وقلة الجدوى من الرحلة على حد قوله كما يذكر. وقد تحدث عن ذلك فقال: " وكنت أردت الدخول إلى أرض الظلمة والدخول إليها من بلغار، وبينهما أربعون يوما، ثم أضربت عن ذلك لعظم المؤنة فيه وقلة الجدوى، والسفر إليها لا يكون إلا في عجلات صغار، تجرها كلاب كبار، فإن تلك المفازة فيها الجليد، فلا يثبت قدم الآدمي ولا حافر الدابة، والكلاب لها الأظفار، فتثبت أقدامها في الجليد" (المصدر السابق، نفس الصفحة).

٢- الرحلة بهدف أداء فريضة الحج: ومع أن الرحلة بهدف أداء فريضة الحج لا تشكل سببا مباشرا لإجراء أي نوع من أنواع الدراسة الميدانية، إلا أننا نجد أن عددا غير قليل من الكتاب، وجدوا في السفر لأداء فريضة الحج فرصة للتعرف على البلدان التي يمرون عليها أو يتجهون لزيارتها، ومن ثم الكتابة عنها ووصفها، وفق اهتمامات كل كاتب ورغباته، وما ذاك إلا لأن من بين المتنقلين من مختلف بقاع الأرض - باتجاه الديار المقدسة في جزيرة العرب - إعداد من العلماء والباحثين، وبعضهم من المهتمين بالدراسات الجغرافية والتاريخية والاجتماعية.

فالرحلة لأداء فريضة الحج تركت آثارا واضحة في الأدب الجغرافي لدى

عدد كبير من الجغرافيين المسلمين أمثال: المقدسي وياقوت الحموي، والهمداني، كما أنها كانت السبب في شروع عدد آخر من العلماء في البحث الميداني وتدوين المشاهدات، ينطبق هذا على أعمال كل من ابن جبير وناصر خسرو، وابن بطوطة، وغيرهم. فابن جبير(٥٤٠هـ-٦١٤هـ) يشير إلى أن هدف الرحلة كان لغرض أداء فريضة الحج إذ يقول: " وكان انفصال أحمد بن حسان ومحمد بن جبير من غرناطة - حرسها الله - للنية الحجازية المباركة - قرنها الله بالتيسير والتسهيل، وتعريف الصنيع الجميل - أول ساعة من يوم الخميس الثامن لشوال المذكور، وبموافقة اليوم الثالث لشهر فبراير الأعجمي "(ابن جبير، ص ٤١).

وعن الغاية نفسها يتحدث ابن بطوطة فيقول: " كان خروجي من طنجة مسقط رأسي في يوم الخميس الثاني من شهر الله رجب الفرد، عام خمسة وعشرين وسبعمائة، معتمدا حج بيت الله الحرام، وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام " (ابن بطوطة، ص ٤-٥).

ومن المعلوم أن ابن بطوطة قد عمد إلى زيارة عدد من البلدان قبل وبعد أداء فريضة الحج بقصد التعرف عليها والاطلاع على ما فيها من المظاهر الموجبة للذكر، وحول هذا الأمر يقول أحد الكتاب الذين اتجهوا إلى دراسة رحلة ابن بطوطة: " ومع أنه يقول إن دافعه للرحلة هو الحج _فإننا نضيف إلى ذلك - أنه كان وراء هذا الدافع شوق آخر شديد إلى المعرفة. وسنلاحظ ذلك طول رحلته. وهذه الظاهرة ظاهرة الشوق إلى رؤية الدنيا والناس، نجدها عند كبار الرحالين في أدبنا الجغرافي الفني " (مؤنس، ص ١٨).

٣ - الرحلة بهدف السياحة: إن توجه قلة من الرحالين المسلمين إلى زيارة البلدان المختلفة، والمواضع المشهورة، بهدف التعرف عليها، والاطلاع على ما فيها من معالم طبيعة وبشرية، ليعد ضربا من ضروب السياحة، فابن بطوطة يشير إلى ذلك في مصنفه المعروف برحلة ابن بطوطة، وذلك في معرض وصفه للقاء الذي

تم بينه وبين أحد علماء الإسكندرية، (وقد أسماه الإمام العالم الزاهد .. برهان الدين الأعرج) وهو في طريقه لأداء فريضة الحج فقال : " وأقمت في ضيافته ثلاثا (أي في ضيافة الشيخ المذكور) دخلت عليه يوما فقال لي أراك تحب السياحة والجَولان في البلاد، فقلت له نعم إني أحب ذلك، ولم يكن حينئذ بخاطري التوغل في البلاد القاصية من الهند والصين" .(ابن بطوطة، ص ١٠ - ١١) وفي مكان آخر يحمد الله على أن هدفه المتمثل في السياحة في الأرض قد تحقق، ويفخر لكونه قد بلغ من ذلك ما لم يبلغه أحد ممن سبقه . " فقد بلغت بحمد الله مرادي في الدنيا وهو السياحة في الأرض، وبلغت ما لم يبلغه غيري فيما أعلمه " (المصدر السابق، ص ١١٨) .

٤- رحلات الوفود والمبعوثين الرسميين : توجد مجموعة أخرى من الباحثين الذين تم لهم التجول والارتحال في الأرض، وتمكنوا من تدوين ما توافر لهم من معلومات وذكريات عن البلاد التي زاروها، أولئك هم الأفراد والجماعات الذين ذهبوا في بعثات رسمية من قبل الحكام في مختلف الأوقات، وقد حملوا مسؤوليات ومهمات إما سياسية أو ثقافية أو دينية، أو تجارية أو استطلاعية، وقد اختير أغلبهم لعلمه وأدبه، ولخبرته وكفاءته. ومن هذه البعثات بعثة برية " أرسلها الخليفة الواثق بالله إلى موضع سد ياجوج و ماجوج حوالي منتصف القرن الثالث الهجري، حيث رأى ذلك الخليفة في منامه أن السد الذي بناه ذو القرنين حول قوم ياجوج وماجوج قد انفتح فطلب الخليفة رجلا، يخرجه إلى الموضع فيستخبر خبره وقد أشار عليه مستشاروه بأن يرسل سلام الترجمان (القرن الثالث هـ) فهو أنسب الناس للقيام بهذه المهمة، خصوصا وأنه يجيد ثلاثين لغة، وقد مده الخليفة بخمسين رجلا، وكل مستلزمات الرحلة، وقد أورد ابن خرداذبة تفصيلات هذه الرحلة كما رواها له سلام نفسه، ومن الوفود أيضا وفد أرسل إلى الصين أيام المحادثات بين السامانيين وملك الصين وفيه أبرز

وصف الرحلة وصفا دقيقا، وهناك وفود سرية أرسلت في بعض الأوقات لتقصي الأخبار عن بعض البلدان المجاورة لديار المسلمين، وكانت تعود وقد دونت كثيرا مما شاهدته، وما تكون لديها من انطباعات. وقد أورد الإمام الدمشقي في مؤلفه فضائل الجهاد خبر واحد من هؤلاء، هو سيد غازي، الذي ذكر أنه بقي في بلاد الروم (٢٠) سنة.

٥ - رغبة الولاة والأمراء في إيجاد أدلة وموسوعات وشروحات موسعة عن البلاد الإسلامية وطرقها، وبعض خصائصها الطبيعية والبشرية الأخرى: وفي مواقع أخرى من تاريخ أدبنا الجغرافي، نجد شواهد لحالات أخرى منها تكليفات الولاة والحكام لبعض أهل الخبرة من الجغرافيين بإعداد مصنفات عن بلاد معينة، أو مسالك محددة، مما يسهل الأعمال الإدارية للدولة، ويزيد من فهم المسؤولين لمختلف أجزاء البلاد التي يتولون إدارتها.

فابن خرداذبة (٢٠٥هـ - ٣٠٠هـ) يوضح في إجابته على طلب الخليفة أنه فهم ما يتطلع إليه ذلك الحاكم، وسيقوم بتنفيذه، وذلك حين يقول: " فهمت الذي سألت أفهمك الله جميع الخيرات وأسعدك إلى الممات، وأفلح في الدارين سهمك، ووفر فيهما قسمك من رسم إيضاح مسالك الأرض وممالكها، وصفتها وبعدها، وقُر بها وعامرها وغامرها، والمسير بين ذلك منها من مفاوزها، وأقاصيها، ورسوم طرقها، وطسوقها على ما رسمه المتقدمون منها..... " (ابن خرداذبة، ص ١).

وفي موقف مشابه يبين أبو الفرج قدامه بن جعفر (توفي في القرن الرابع الهجري) هدفه من تأليف مصنفه فيقول: " ليكون الخليفة على اطلاع دائم بأحوال المملكة، وتيسير الانتقال لجيوشه دون مشقة إلى النواحي التي يحدث فيها اضطراب " (رمضان، ص ٦٣). وبالمثل فإن ابن حوقل يذكر في مقدمة كتابه بعد أن أثنى على أحد كبار المسؤولين في الدولة، واسمه أبو السري الحسن بن

الفضل بن أبي السري الأصبهاني :" وقد عملت له كتابي هذا بصفة أشكال الأرض، ومقدارها في الطول والعرض، وأقاليم البلدان، ومحل الغامر منها والعمران من جميع بلاد الإسلام ....." (ابن حوقل، ص٢).

لقد كان السبب السابق هو أحد الأهداف التي دفعت ابن حوقل إلى إعداد مصنفه "صورة الأرض " إلى جانب أهداف أخرى سبق الحديث عنها ومن ذلك محبتة لعلم المسالك والممالك وولعة الشديد به.

توافرت عوامل عدة ساعدت على تيسير عمل الباحثين من الجغرافيين المسلمين من الرحالين وغيرهم، وعملت على تمكينهم من تحقيق أهدافهم من وراء الدراسة الميدانية. يأتي في مقدمة تلك العوامل المساعدة ما اتصفت به الأمة الإسلامية من وجود الترابط بين أفراد مجتمعها وتجانسهم، بسبب اتحادهم في العقيدة، وتمثلهم لمبادئ دينية واحدة، إلى الحد الذي أصبح فيه الرحالين أو المسافر ينتقل من مكان إلى آخر داخل ديار الإسلام دون أن يشعر بغربة حقيقية، أو يعمد إلى وقف تنقلاته بسبب الاحتياج إلى المال أو غيره، وحول هذا الأمر يتساءل أحد الكتاب المعاصرين فيقول: " كيف استطاع أن يقوم ابن بطوطة بهذه الرحلة الطويلة وهو لم يكن بتاجر، يبيع ويشترى ويسدد نفقات الرحلة على الطريق ؟ الجواب على هذا السؤال يكشف عن ناحية من أجمل نواحي الحضارة الإسلامية وهي ناحية ترابط الأمة و تآخيها وتعاون أفرادها بعضهم مع بعض، واجتهادهم في المحافظة على وحدة أمتهم وسلامة دار الإسلام .

ويمضي الكاتب نفسه في سرد الأسباب المساعدة على هذا الأمر ويذكّر بما اتفقت الأمة على توفيره ونشره في مختلف مراكز الاستقرار من مدن وبلدان وقرى وغيرها، والمتمثل في الأعداد الكبيرة من الزوايا والمدارس والأربطة، التي يأتي تأسيسها من منطلق ما أشتمل عليه القرآن الكريم من آيات تحث على حسن رعاية ابن السبيل وإكرامه وإطعامه.(مؤنس، ص ٢٢).

ويلفت باحث آخر النظر إلى دور المراكز الإرشادية التي أقامتها الحكومات الإسلامية (قديما) على محاور الطرق في تيسير تحركات المسافرين من البحارة والرحالين العلماء، وغيرهم ـ وكانت توفر بعض الخدمات لهم ـ فيقول :" وقد ساعدت معالم الطريق التي أقامتها الحكومة، التجار في أسفارهم كما كانت نواة للبحوث الجغرافية " (الملا، ص ١٧٨).

هذا إلى جانب أن بعض كُتاب المسالك والممالك كانوا ممن عمل في مجال خدمات البريد الرسمي للدولة ومنهم ابن خرداذبه الذي قيل عنه " وبحكم وظيفته كصاحب للبريد استطاع ابن خرداذبه من الحصول على كثير من الوثائق والمعلومات والبيانات التي مكنته من تأليف عدد من الكتب في التاريخ والأدب والطعام والشراب واللهو والطرب، ولكن أهم كتاب يعنينا في هذا المقام كتابه الجغرافي المسمى المسالك والممالك " (الفرا، ص ١٥٣).

ولم يغفل الجغرافيون دور بعض الفئات الأخرى من المجتمع الإسلامي في تسهيل مهمة الباحثين الميدانيين في مجال القضايا الجغرافية، من خلال ما يقدمونه من معلومات - لأولئك الباحثين عن بعض المناطق والمسالك، حيث يشار في بعض المواقف إلى دور الدعاة المسلمين الموجودين في مواقع عدة في أطراف الدولة الإسلامية، والذين توافرت لديهم بعض الخبرة عن البلدان وطرقها بسبب عملهم الدعوي. يذكر كراتشكوفسكي أن أول معرفة للعرب بالطريق البري الذي يخترق آسيا الوسطى إلى الصين، كان من خلال الاعتماد على وصف قدمه شخص يدعى تميم بن بحر المطوعي الذي كان أحد المتطوعين من جنود الثغور الإسلامية. (كراتشكوفسكي، ص ١٥٥).

ويذكر الكاتب نفسه أن التجار المسلمين ولا سيما تجار بلاد فارس، قد لعبوا دورا مهما في التعريف بالطريق البحري الموصل بين جنوبي العراق وسواحل الخليج من جانب، والطريق البحري إلى بلاد الصين من جانب آخر، مرورا بالجزر وأشباه

الجـزر في المحيط الهندي، والتي من أهــمـها شـبه جزيرة الهند، والجزر الإندونيسية. لافتا النظــر إلى شـهرة المركز العربي الفــارسي بميناء كانتون (CANTON) في بلاد الصين كأحد المراكز التجارية التي يتردد عليها التجار المسلمون كثيرا. (المصدر السابق، ص ١٥٤).

الفصل الرابع

طرق جمع المعلومات من الميدان

يتصف الأدب الجغرافي الإسلامي بغزارة مادته العلمية، واتساع مداه مكانيا وزمنيا، إضافة إلى تعدد ميادينه، ودوره المستمر في إخراج المعلومات الجديدة، طوال فترات ازدهار العلوم عند المسلمين، وفيما عدا عدد قليل من علماء المسلمين المتأثرين بالمدرسة اليونانية أو المعارف الهندية والفارسية، فإن بقية علماء الجغرافيا المسلمين تميزت أعمالهم العلمية بالابتكار والإبداع، ويرجع ذلك إلى عاملين أساسيين هما:

أ - ما توافر للعلم والعلماء في عصر ازدهار الحضارة الإسلامية من دوافع وعوامل مساعدة ساهمت بشكل فاعل في تقدم مختلف العلوم على أيدي علماء المسلمين، ومن ذلك علم الجغرافيا.

ب - إقدام عدد كبير من الجغرافيين المسلمين على إجراء الدراسات والبحوث الجغرافية الميدانية عن طريق القيام بالرحلات والزيارات، والاعتماد على أسلوب المشاهدة ومعايشة الحدث، وانتهاج أسلوب التجربة في بعض الأحيان سبيلا لاكتساب الخبرات، واستخلاص النتائج.

توجد خمس طرق اتبعها علماء المسلمين عند جمع المادة العلمية وهذه الطرق هي:

أولا: النقل من المصادر والمراجع وإضافة ما توافر لدى الباحث من معلومات أخرى اكتسابها من واقع تجربته الشخصية في أثناء تنقله في بعض البلدان، ومشاهدته لبعض الظواهر الطبيعية والبشرية، وقد سلك هذا المسلك مجموعة من الباحثين منهم لسان اليمن الحسن بن احمد الهمداني (ت ٣٣٤هـ - ٩٣٥م)، ويلحظ ذلك في مؤلفه " صفة جزيرة العرب " حيث كانت معلوماته عن بلاد اليمن ناجمة عن خبرته عن هذا الصقع من الأرض، فكانت معلوماته عنه دقيقة ومفصلة

إلى حد كبير، في حين اعتمد في معلوماته عن بعض أجزاء الجزيرة العربية على مصادر مختلفة مكتوبة أو مروية، وهذا ما جعله يقع في بعض الأخطاء. وقد علق على هذا الحال حمد الجاسر في مقدمته التي كتبها في أول الكتاب المذكور، وذلك بقوله: " والهمداني - فيما عدا بلاد اليمن - لا يتجاوز علمه حد ما ينقله أو يستنتجه، ولهذا وقعت في كلامه عن بلاد نجد، وعن منازل القبائل في جهات الجزيرة أخطاء كثيرةً (الهمداني، ص ١٣).

ويعتبر ابن حوقل من المؤلفين الذين اعتمدوا في إعداد مؤلفاتهم على طريقتي النقل والعقل، أو الرواية والخبرة، وقد ظهر ذلك في مؤلفه " كتاب صورة الأرض " وأشار إلى ذلك في عدة مواضع في كتابه ومنها قوله: " فدعاني ذلك إلى تأليف هذا الكتاب، واستنطاقي فيه وجوها من القول والخطاب وأعانني عليه تواصل السفر، وانزعاجي عن وطني، مع ما سبق به القدر لاستيفاء الرزق والأثر (ابن حوقل، ص٣).

ويُعد ياقوت الحموي من أكثر الكتاب الذين جمعوا بين طريقتي النقل والعقل، فبالرغم من أن مؤلفه يعد من أشهر المعاجم الجغرافية - إن لم يكن أشهرها - إلا أنه لم يقتصر على ما توافر في المصادر والمراجع من بيانات عن المواضع والمعالم التي تحدث عنها - كما هي عادة مؤلفي المعاجم - بل وضح أثر تنقلاته وأسفاره ومعرفته المباشرة في المادة العلمية التي جمعها عن المسميات الجغرافية التي قدم تحليلا جغرافيا ولغويا عنها. يتكلم الحموي عن أسلوبه في جمع مادته العلمية فيقول: " وهذه الكتب المدونة في هذا الباب التي نقلت منها، ثم نقلت من دواوين العرب والمحدثين، وتواريخ أهل الأدب والمحدثين، ومن أفواه الرواة، وتفاريق الكتب، وما شاهدته في أسفاري، وحصلته في تطوافي، أضعاف ذلك " (الحموي، ص٢٢).

ثانيا: تذكّر أحداث الرحلة بعد الانتهاء منها وكتابتها أو إملائها على الغير. وقد حدث هذا لبعض الرحالين أمثال الهروي وابن بطوطة، الذين أجّلوا تدوين

مذكرات رحلاتهم ومشاهداتهم إلى ما بعد انقضاء زياراتهم ورحلاتهم، ربما لأنه لم تكن لديهم نية في بداية الأمر لتدوين المعلومات التي توصلوا إليها في أثناء جولاتهم الميدانية، أو لفقدها أو لانشغالهم بقضايا أخرى لم يفصحوا عنها، ولكننا نجد العديد من عامة الناس وخاصتهم يطلبون من أولئك الرحالين كتابة ما شاهدوه - وما اطلعوا عليه خلال زياراتهم لأهمية المعلومات التي توافرت لديهم عن البلاد التي زارها أولئك الرحالون.

وقد نقل زيادة جزءا من مقدمة الهروي(ت ٦١١هـ - ١٢١٥هـ) في كتابة "الإشارات إلى معرفة الزيارات"، التي بيّن فيها أسباب قيامه بكتابة ذكرياته وتجاربه الخاصة بالرحلة التي قام بها حيث يقول الهروي ما نصه " أما بعد فإنه سألني بعض الإخوان الصالحين والخلان الناصحين أن أذكر له ما زرته من الزيارات، وما شاهدته من العجائب والأبنية والعمارات وما رأيته من الأصنام والآثار والطلسمات. في الربع المسكون والقطر المعمور. ووقع الامتناع، إلى أن حصل لي الاجتماع برسول وفد من الديوان العزيز، شرفه الله وعظمه، وتبركنا بزيارته، واستسعدنا برؤيته، إذ كان قدومه من دار السلام وقبة الإسلام، وذكر الشيخ للرسول زياراته... . فوقع ابتداء ذكر الزيارات من مدينة حلب وقد اختصرت ما حضرني على سبيل الإيجاز"(زيادة، ص ١٥٧).

أما ابن بطوطة فقد زار أكثر بقاع البلاد الإسلامية وبعض أماكن أخرى خارجها، وتجول في مناطق واسعة، واستحق أن يوصف بأنه أعظم رحالة في ذلك العصر، وبالرغم من اتساع رقعة البلاد التي زارها، وكثرة الظواهر والأحداث التي شاهدها إلا أنه لم يرو مذكراته عنها إلا بعد انتهائه من تنفيذ ثلاث رحلات، أولاها رحلته إلى الحجاز ومناطق واسعة من آسيا وإفريقيا استغرقت ما يقرب من (٢٥ سنة) الثانية زيارته إلى بلاد الأندلس، والثالثة رحلته إلى بلاد مالي والحوض الأعلى لنهر النيجر.

يُذكَرْ أن ابن بطوطة كان قد فقد أوراقه وكتبه غير مرة، ولذلك فقد أملى الرحلة من الذاكرة (المرجع السابق، ص ١٨٢). أما سبب تدوين تلك المذكرات فقد كان لإعجاب السلطان أبي عنان المريني ـ والي فاس بالمغرب آنذاك ـ بما اكتسبه ابن بطوطة من خبرات حيث كان ابن بطوطة قد تحدث عن أسفاره وتجاربه إلى السلطان فسر بها، وطلب من هذا الرحالين الكبير أن يملي ما شاهده في رحلته عن الأمصار، وما علق بحفظه من نوادر الأخبار، ويذكر من لقيه من ملوك الأقطار وعلمائها الأخيار. ووضع السلطان كاتبه ابن جزى تحت تصرف ابن بطوطة، ليقوم الأول بتدوين كل ما يمليه عليه الرحالين، ولو لا ذلك لتعذر التعرف على حصيلة هذه التجربة العلمية الثرية، التي لاشك أنها كانت حافزا لعدد آخر من علماء المسلمين للسفر والسعي إلى تحقيق اكتشافات جغرافية وثقافية جديدة، وقد أورد كاتب رحلة ابن بطوطة في نهايتها ما نصه (قال ابن جزى انتهى ما لخصته من تقييد الشيخ أبي عبدالله محمد بن بطوطة) أكرمه الله، (ابن بطوطة، ص ٢١٢).

ثالثا: كتابة المذكرات اليومية: أما النوع الثالث من طرق جمع المعلومات من الميدان وتدوينها، فقد سارت على طريقة كتابة المذكرات اليومية التي يميزها ذكر التواريخ اليومية للأحداث والمشاهدات، وإيراد الكثير من التفصيلات عنها، وهذه من أحسن الطرق التي تساعد على حفظ المعلومات والوقائع، وتحول دون نسيانها. ويتضح هذا النهج بشكل واضح وجلي في التجربة التي قدمها لنا ابن جبير، حيث قام بتدوين أحداث رحلته مدعمة بذكر اليوم والتاريخ الهجري القمري، والتاريخ الميلادي الشمسي، بل وذكر الوقت من النهار أو الليل، ولا سيما في حال تحركه من مكان ونزوله في مكان آخر وسرد ما حدث خلال فترة السير، إلا أننا نجده يسهب في وصف بعض المراكز الحضرية والمشاهد وما شابه ذلك في حال توقفه، مثل حديثة عن بعض المدن التي قام بزيارتها: الإسكندرية القاهرة، ومكة المكرمة والمدينة المنورة، والحلة وتكريت والكوفة وحمص ودمشق وغيرها، وقد عرض أحداث الرحلة وفق تتابعها الزمني.

رابعا: عرض المادة العلمية في وحدات منفصلة مما يشير إلى أنها قد جمعت (في الغالب) في فترات متفاوتة، بحسب ظروف كل رحالة وتم إخراجها في نهاية الأمر دفعة واحدة، ومن أمثلة ذلك ما كتبه أبو الريحان البيروني (٣٦٢هـ - ٤٤٠هـ)، وناصر خسرو(٣٩٤هـ - ٤٨١هـ)، وأحمد بن فضلان(القرن الرابع الهجري) وغيرهم.

وقد اضطر البيروني " علي ما يبدو - في جعل فصول كتابه الشهير، والمعروف باسم " تحقيق ما للهند من مقوله مقبولة في العقل أو مرذولة " تخرج متكاملة دون أن يعرّف بأسلوبه في جمع مادتها لاضطراره إلى ترجمة بعض المصطلحات من الهندية إلى العربية، بل ربما ومقابلتها باليونانية عندما تتاح الفرصة لذلك، هــذا عدا كونه عايش الاضطرابات السياسية والاقتصادية في كثير من البلدان التي أقام بها. وقريب من ذلك كان نهج ناصر خسرو، ومع ما قاله البعض عنه بأنه " خــلّف وصفا دقيقا يدفع إلى الظن بأنه كان يسجل مشاهداته أولا فأولا (حميدة، ص ٣٣). فقد أخرج مؤلفه " سفر نامة " في شكل وحدات يكاد كل منها يستقل عن الآخر، مع السير في العرض وفق منهج واحد، ركز فيه على وصف المدن في المناطق التي مر بها في الشام ومصر والحجاز ونجد والأحساء وغيرها، كما تحدث عن جوانب من التركيب الداخلي لتلك المدن. دون إشارة منه إلى أنه اتبع أسلوب التدوين اليومي أو غيره، هذا مع اهتمامه بتحديد تواريخ بدايات بعض الأحداث والأعمال التي قام بها في كل فترة. ويؤكد أن مؤلفه السابق ذكره، لا يخرج عن كونه مذكرات رحالة أراد تعريف الناس بها حيث يقول: " وهذا الذي تقرأ في رحلتي هذه هو ما رأيته وشرحته بصدق وتجرد، وبعضه قصه الناس عليّ " (خسرو، ص ٢٠٦).

أما السفير ابن فضلان فقد كان أحد أعضاء الوفد الذي أرسله الخليفة العباسي المقتدر بالله إلى ملك الصقالبة، الذي طلب من الخليفة بأن يرسل إليهم

من يعلمهم قواعد الدين الإسلامي، وينشئ لهم مسجدا، ويبني لهم حصنا يتحصن فيه ملوك الصقالبة من المناوئين لهم. كان دور أحمد بن فضلان في الوفد - كما يذكر عن نفسه - قراءة كتاب الخليفة أمام ملك الصقالبة، وتسليم الهدايا والإشراف على الفقهاء والمعلمين (ابن فضلان، ص ٦٨).

وقد سرد القصة بأسلوب أدبي ماتع شديد الاختصار عظيم الدلالة، حيث صوّر الرحلة والعادات والتقاليد وكثيرا من صور الحياة الاجتماعية والثقافية للبلاد التي مر بها الوفد، ومع ذلك ففي الرحلة تفصيلات كثيرة مع إيجازها، تم إيرادها مرتبه حسب تتابعها الزمني.

خامسا: إعداد الأسئلة وطرحها وطلب الإجابة عنها: هذا نمط آخر من أنماط طرق جمع البيانات يتمثل في أن الدارس، يقوم بإعداد جملة من الأسئلة التي يرغب في معرفة الجواب عنها، ولا سيما من قبل الأفراد الذين تتاح له فرصة اللقاء بهم، ويكون إعداد الأسئلة بشكل مسبق، ولو ذهنيا، فيما يشبه الاستبانة (QUESTIONNAIR)، التي تعد أهم وسائل جمع البيانات من الميدان في العصر الحديث، وهذا أسلوب اتبعه عدد من علماء المسلمين. وظهر أثره في أعمالهم العلمية على الرغم من عدم إخبارهم عنه،

كان اليعقوبي من أكثر من أشار إلى دور الأسئلة في دراسته الجغرافية، فقد بدأ كتابة " كتاب البلدان " بمقدمة ضمنها طريقته في جمع المعلومات التي يرغب الحصول عليها من الأشخاص الذين يقابلهم سواء من كان منهم من سكان البلدان التي يمر بها، أو الذين يلتقي بهم من أبناء البلدان الأخرى. حيث يذكر أنه متى ما لقي رجلا سأله عن اسم وطنه وبلدته وما نوع زراعته ومن هم ساكنوه، وعن بعض عاداتهم، والمسافة بين ذلك البلد والبلدان الأخرى، وتاريخ فتح الإسلام له، ومقدار خراجه، وغير ذلك من الأسئلة اللازمة لاستكمال البيانات المطلوبة (اليعقوبي، ص١ ـ ص٢) ويذكر أنه استمر في جمع تلك

الأخبار وتأليف كتابه المذكور دهـرا طويلا، وهو في كل مرة يضيف ما يجدّ من معلومات إلى سابقها، مع حرصه على استفاء معلوماته من الثقات من سكان المدن والبلدان المختلفة.

وفي إجراء مماثل لما سبق يصف المقدسي أسلوبه في جمع مادته العلمية، فكان نتيجة جولاته في البلدان، ودخوله أقاليم الإسلام، ومقابلة العلماء، وخدمة الملوك ومجالسة القضاة، والدراسة على الفقهاء، وتردده على الأدباء والقراء. وكتبة الحديث، ومخالطة الزهاد والمتصوفين، وحضور مجالس القصاص والمذكرين، والعمل بالتجارة، ومعاشرة كثير من الناس، وملاحظة الأشياء مباشرة، وحساب مساحة الأقاليم واستيعابها، والتجول في مناطق التخوم وجمع المعلومات منها، والوصول إلى الأجناد، والتعرف على المذاهب واللغات واللهجات، والتفكر في أقسام البلاد، وإحصاء الأخرجة، ومعرفة خصائص الهواء ووزن الماء. (المقدسي، ص ١٧).

المجال الجغرافي للدراسة الميدانية

أجرى علماء الجغرافيا المسلمون دراساتهم الميدانية - المصاحبة لرحلاتهم وأسفارهم في حيز جغرافي واسع شمل أغلب أنحاء قارات العالم القديم آسيا وإفريقيا وأوروبا، وتمكنوا من كشف مناطق وأقاليم جديدة لم تكن معروفة من قبل. وبمقارنة المدى الجغرافي لمناطق الكشف الجغرافي الإسلامي، مع ما وصلت إليه معرفة الأمم السابقة من قبل عن العالم يتضح أن معرفة العرب المسلمين بالعالم أضحت أوسع بكثير مما كان يعرفه بطلميوس عنه - والذي مثلت كتبه خلاصة ما وصلت إليه المعرفة الجغرافية قديما - وكانت معرفة المسلمين تبرز بشكل أوضح بالنسبة لكثير من الأقاليم في شرق العالم وجنوبه.(Beazley. P.394).

وقد قدم كراتشكوفسكي(ص ٢٥٠) وصفا لمدى اتساع الرقعة الجغرافية للمناطق والأقاليم التي شملتها دراسات علماء المسلمين ورحلاتهم العلمية: فأبان أن علماء المسلمين قد عرفوا أوروبا بأجمعها باستثناء أقصى شمالها، وشملت معرفتهم أيضا النصف الجنوبي من آسيا، والقسم الواقع من إفريقيا شمال خط العرض (١٠ ٥) شمالا، وساحل إفريقيا الشرقي إلى رأس كرنتس قرب مدار الجدي. وذكر أن معرفة علماء المسلمين في هذا قد تجاوزت بصورة ملحوظة حدود العالم كما عرفه اليونان، حيث يشير إلى أن معرفة الأخيرين بالبلاد الواقعة إلى الشرق من بحر قزوين كانت ناقصة، كما لم تكن لهم أية فكرة عن الساحل الشرقي لآسيا إلى الشمال من الهند الصينية، في الوقت الذي كان المسلمون على دراية تامة بالطريق البري الذي يرتفع إلى أعالي نهر ارتيش ونهر نيسي، وعرفوا سواحل آسيا إلى كوريا شمالا.

وتطرق كراتشكوفسكي إلى طبيعة المعلومات الجغرافية التي وفرها علماء

المسلمين عن البلدان التي أحاطوا بها خبرة فقال: " وترك العرب وصفا مفصلا لجميع البلدان من أسبانيا غربا إلى تركستان ومصب السند شرقا، مع وصف دقيق لجميع النقاط المأهولة وللمناطق المزروعة والصحاري، وبينوا مدى انتشار النباتات المزروعة، وأماكن وجود المعادن، ولم تجتذب اهتمامهم الجغرافيا الطبيعية، أو الظروف المناخية فحسب،بل أيضا الحياة الاجتماعية والصناعية والزراعية واللغة والتعاليم الدينية "(المرجع السابق ص٦).

يرى بعض المختصين أن حركة الكشوف الجغرافية الإسلامية قد تمت ضمن ثلاثة محاور ساهمت في توسع الأفق الجغرافي العالمي في ذلك الوقت، وهذه المحاور هي:

١ ـ المحور الشرقي الذي مكن من التعرف على الأجزاء الجنوبية والشرقية من آسيا وقبل ذلك كانت معرفة العالم تقف (تقريبا) عند نهر الكانج.

٢ ـ المحور الجنوبي الذي مكن من معرفة المزيد عن إفريقيا جنوب الصحراء ومكن من التعرف على سواحل زنجبار على المحيط الهندي، من مدغشقر حتى سفالة (سفالة الزنج)، ووصف الحضارة الإسلامية بأنها أول حضارة تركت بصماتها على الشعوب السودانية في إفريقيا جنوب الصحراء.

٣ ـ المحور الشمالي الذي تكررت عن طريقه المحاولات المبكرة للتوغل في روسيا الأوروبية والدخول في عمق الإقليم السيبيري (BEAZELY P. 497).

يبين الشكل رقم (١) أهم البلدان والأقاليم التي تنقل بها الجغرافيون المسلمون ودونوا مشاهداتهم عنها، وتكرر ذكر أسمائها في بحوثهم الميدانية.

ينقسم علماء الجغرافيا المسلمون بحسب مناطق البحث الميداني التي أجروا عليها دراساتهم إلى خمس مجموعات هي:

المجموعة الأولى: وهي مجموعة العلماء الذين غطت دراساتهم أقاليم

متعددة داخل العالم الإسلامي وخارجه، وتنقلوا في قارات العالم الثلاث آسيا وإفريقيا وأوروبا، ويمكن وصفهم بالرحالين العالميين. يأتي في مقدمة هذه المجموعة الرحالين والعالم: أبو الحسن المسعودي. الذي قام برحلات ناجحة في بلاد فارس والهند وسيلان والتركستان وأرمينيا وسواحل بحر قزوين، بالإضافة إلى مصر وأجزاء متفرقة من قارة إفريقيا (شملت زنجبار ومعظم سواحل إفريقيا الشرقية والسودان والمغرب كما تجول في مناطق متعددة من أسبانيا وبعض أراضي الإمبراطورية اليونانية (Ali . P. 42) وينسب إليه قوله:

تغربت حتى لم أجد ذكر مشرق وشرقت حتى قد نسيت المغاربا.

وقد ألف عدة كتب من أهمها للجغرافيين كتاب "مروج الذهب ومعادن الجوهر".

أما ابن حوقل فقد تجول في أقطار المغرب العربي والأندلس، ونابولي وبلرمو التي تنقل بها سنة (٣٦٣هـ). كما جاب ربوع مصر والشام العراق وفارس وزار البحرين والأحساء. وصفه نقولا زيادة بأنه أطرف شخصية من جغرافي القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي). بدأ رحلاته سنة ٢٣١هـ / ٩٤٢م. من بغداد وعاد إليها بعد ثلث قرن زار خلالها ديار الإسلام من الهند إلى أسبانية، وتغلغل في مناطق أخرى كثيرة، حتى وصل بلاد البلغار من أعالي الفولجا. (زيادة، ص ٣١).من أهم مؤلفاته كتاب (صورة الأرض).

كان الإدريسي (٤٩٣هـ - ٥٦٠هـ) من العلماء الذين تحقق لهم التنقل في مناطق عديدة من العالم، بدأ في الارتحال الذي ملك عليه فؤاده منذ أن كان في السادسة عشرة من عمره، وفي هذا المجال طاف ذلك الجغرافي بالأندلس وفرنسا وإنجلترا، وتنقل في شمال إفريقيا وذهب إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، كما زار بلاد الشام ومصر واليونان وأقام لمدة تقارب نصف قرن في جزيرة صقلية، حيث عمل

لدى ملكها روجر الثاني. هناك ألف عدة مؤلفات من أهمها "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" وكتاب "أنس المهج وروض الفرج" الذي ألفه لغليوم الثاني ابن الملك روجر، ويعد بمثابة أطلس للمعمور المعروف في وقته.

يعد الرحالة ابن بطوطة من أشهر رحالة القرون الوسطى. بدأ رحلاته، وهو في الثانية والعشرين من عمرة واستغرقت تلك الرحلات ما يقرب من (٢٨سنة) زار خلالها شمال إفريقيا وجزيرة العرب وأواسط وجنوب وغرب آسيا، و رحل من الهند إلى جنوب الصين، وتجول في أواسط آسيا وتركستان والحوض الأدنى لنهر الفولجا، وكاد يشد الرحال إلى سيبيريا لو لا اعتقاده بقلة الجدوى في ذلك. حرص في رحلاته على زيارة كل موقع يرى فائدة من الوصول إليه، وفي أحيان كثيرة كان يقوم بتكرار الزيارة، ووصف بأنه لا يكاد يدانيه في اتساع رحلاته سوى ماركو بولو، الرحالين البندقي المشهور، وقُدر ما قطعه في رحلاته بحوالي مائة وخمسة وسبعين ألف ميل (خصباك، ص ٢٧٤).

المجموعة الثانية: وهي مجموعة العلماء المسلمين الذين تركزت رحلاتهم وأسفارهم على بلاد الإسلام، ولم ينطلقوا إلى خارجها. من أولهم اليعقوبي، وقد عاش في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، ومع أنه ولد في بغداد إلا إنه أمضى معظم حياته في مصر والمغرب أيام حكم الطولونية. (المصدر السابق، ص ٩) قام بعدة رحلات في أرمينيا وخراسان والهند وتركستان والأندلس، فضلا عن المغرب ومصر وبلاد الشام والعراق. ألف كتابه المعروف باسم (كتاب البلدان).

ومن العلماء في هذه الفئة الأصطخري(ت ٢٩٦هـ - ٩٥٧م). بدأ رحلاته في سنة (٣٤٠هـ - ٩٥١م)، وزار كثير من البلدان الإسلامية الواقعة بين الهند شرقا والمحيط الأطلسي غربا، وبين المحيط الهندي جنوبا وبحر قزوين شمالا. فقد زار أكثر أقطار آسيا حتى بلغ سواحل المحيط الهندي، بعد أن وصل إلى

الهند عام (٣٤٠هـ) وخرج من رحلاته بتأليف كتابين هما: (كتاب الأقاليم)، وكتاب (المسالك والممالك) وكانت رحلاته بهدف طلب العلم والتزود بالمعرفة عن ديار الإسلام، وقد وصفها بإطناب.

أمضى المقدسي سنوات طويلة من عمره يتجول في أنحاء متفرقة من بلاد الإسلام، حيث زار العراق ومصر، وجزيرة العرب، وبلاد فارس، وأقطار المغرب العربي، وألف تبعا لذلك كتابه المعروف (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) الذي نال شهرة واسعة عند العلماء، نظرا لما اتصف به من دقة وإتقان في الوصف والمنهج. وقد أوضح أن معلوماته التي أوردها عن الأندلس إنما استقاها من الروايات التي ذكرها له حاجّان من المغرب التقى بهما في مكة المكرمة عام (٣٧٧هـ - ٩٨٧م). اشتمل كتاب " أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم " على نتائج وإبداعات علمية كانت بمثابة نقله علمية أثرت ولا شك في تطور علم الجغرافيا عموما، وذلك لانتهاج مؤلفه منهجا مبتكرا، وطرحه لنماذج وآراء ونظريات يتم عرضها لأول مرة ومن ذلك رسم نموذج هرمي واقعي ودقيق لمراتب المدن في أقاليم العالم الإسلامي (المقدسي، ص ٥٤) مما يعني سبق المقدسي على غيره من العلماء في بحث موضوع مراتب وأحجام المدن في الأقاليم، ووضع نموذج لشرح العلاقات المتصلة بها.

بدأ ابن جبير رحلته من مدينة سبتة بالأندلس يوم الخميس (٢٩ شوال سنة ٥٨٠ هـ) الموافق ٢٤(شباط سنة ١٤٨٣ م)، بهدف أداء فريضة الحج، وقد سافر عن طريق البحر المتوسط إلى مدينة الإسكندرية، ومنها إلى القاهرة، ومن الأخيرة إلى مدينة قوص في صعيد مصر، فميناء عيذاب على البحر الأحمر، ومنه سافر إلى جُدَّةُ و كانت قرية في ذلك الوقت، كما وصفها ابن جبير، ومن جدة صحب قافلة إلى مكة المكرمة، حيث أقام فيها حوالي عام ونصف، وفي طريق عودته زار المدينة المنورة والكوفة والحلة وبغداد وسامراء فالموصل وحلب ثم دمشق التي أقام

بها عدة أشهر، اتجه بعد ذلك إلى مدينة عكا التي سافر منها بحر إلى الأندلس ومر بجزيرة صقلية.

وقد دون ملاحظاته عن البلاد والشعوب التي مر بها يوما بيوم. واتسمت تسجيلاته بالدقة، وقدم صورا صادقة لكثير من الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للأقطار التي زارها. ويعد مؤلفه المعروف " رحلة ابن جبير " مرجعا لا غني عنه لمن يبحث في أوضاع المجتمعات في البلدان المذكورة في ذلك الزمن.

ومن الرحالين الذين خرجوا من بلاد الأندلس باتجاه بلاد المشرق الإسلامي يرد اسم أبو حامد الغرناطي(٤٧٣هـ - ٥٦٥هـ) الذي غادر الأندلس في عام (٥٠٨هـ - ١١١٥م) فوصل الإسكندرية ومنها إلى القاهرة عاد بعدها إلى وطنه، وخرج في رحلة أخرى إلى الإسكندرية، مر خلالها بجزيرة سردينيا وصقلية، ووصل إلى القاهرة، وقد ظهر بعد ذلك في بغداد عام (٥١٦هـ - ١١٢٢م) وتجول في بلاد المشرق الإسلامي، فزار إيران وأفغانستان، وعبر بحر قزوين، ووصل سخسين على نهر الفولجا الأوسط سنة (٥٢٥هـ - ١١٣١هـ) . ومضى إلى خوارزم، وخرج منها قاصدا أداء فريضة الحج ثم عاد إلى بغداد. تنقل في عدة أماكن في بلاد الشام وتوفي بحلب. ألف العديد من الكتب ومنها "تحفة الألباب ونخبة الإعجاب" و"المعرب عن بعض عجائب المغرب" وقد ضمن كتاباته كثيرا من أخبار الغرائب والعجائب والأساطير.

ومن الرحالين الذين تمكنوا من زيارة أجزاء من البلاد الإسلامية نورد أبا الحسن الهروي الذي عرف هو الأخر باتساع رحلاته وأسفاره التي طاف من خلالها المشرق الإسلامي، وزار الهند والقسطنطينية والمغرب، وصقلية وكثير من جزائر البحر المتوسط. وقد عرف بحب الترحال والأسفار ومن أهم مؤلفاته كتاب "الإشارات إلى أماكن الزيارات".

ومن الرحالين المشهورين في هذا الجانب، الرحالة ابن سعيد المغربي، (٦١٠هـ - ٦٨٥هـ) الذي خرج من موطنه من الأندلس في رحلتين إلى الخارج زار في الأولي الحجاز ومصر والعراق والشام، وأقام بتونس نحو عشر سنين. وفي رحلته الثانية إلى الشرق زار أرمينيا وتوفي بدمشق عام (٦٨٥هـ - ١٢٨٦م). ومن الكتب المنسوبة إليه كتاب "الجغرافيا" ويسمى أيضا "بسط الأرض في الطول والعرض" ومما يذكر لابن سعيد بالفضل هو حرصه على نقل الكثير من الرحلات والأسفار التي قام بها الرحالين المشهور (ابن فاطمة) الذي قام برحلات بحرية طويلة في غرب إفريقيا جنوبي مراكش، وقد جاء في أخباره أن السفينة التي كان يستقلها قد غرقت عند الرأس الأبيض (ساحل الذهب الآن) بعد أن توغل في كشف الساحل الإفريقي الغربي. (رمضان، ص ١٩٤).

ومن الرحالين الذين قصدوا المشرق الإسلامي بهدف أداء فريضة الحج: التجيبي مؤلف كتاب "مستفاد الرحلة والاغتراب ".

المجموعة الثالثة: وتشمل العلماء الذين تم لهم التجول والانتقال في أجزاء من قارتي آسيا وإفريقيا، أو آسيا وأوروبا، وقدموا معلومات مفيدة عن مناطق تجوالهم.ومن هؤلاء العلماء الحسن بن أحمد الهمداني، وهو متعدد المعارف في اللغة والتاريخ والجغرافيا، من أهم كتبه (الإكليل) ويقع في عشرة أجزاء، ويتعلق بالأنساب والتاريخ والآثار و كتاب (صفة جزيرة العرب) وقد تناول فيه وصف كثير من المظاهر الطبيعية البشرية في شبة جزيرة العرب، ويغلب على الظن أن وصفه لبلاد اليمن إنما كان نتيجة الملاحظة الشخصية أما وصفه لبقية أرجاء الجزيرة العربية قد جاء في معظمه استنادا إلى روايات الحجاج والرحالين. وتبين من مؤلفه الأخير أنه تنقل في مواقع عديدة في جنوب الجزيرة العربية ورحل إلى مكة لأداء فريضة الحج أكثر من مرة، أقام في أحد المرات بها فترة من الزمن. و اعتبر كتاب (صفة جزيرة العرب) مرجعا مهما استقى منه الباحثون قديما وحديثا معلومات كثيرة عن الجزيرة العربية.

ومن الباحثين الذين تنقلوا في قارة آسيا ورحلوا إلى مصر في إحدى الفترات هو العلامة ياقوت الحموي، وكان مولى لتاجر من بغداد يعرف بالحموي وقد ساعده عمله في التجارة قبل وبعد وفاة سيده على اتساع معرفته بكثير من البلدان، فقد تجول في آسيا الصغرى وبلاد الشام، ومصر وبلاد المغرب، وإيران، وبلاد ما وراء النهر هذا إلى جانب سعة اطلاعه على العديد من المصنفات في مختلف العلوم خصوصا وأنه عمل بتجارة الكتب ونسخها، وقد ألف كتابه الشهير المعروف باسم (معجم البلدان). الذي أشار في مقدمته إلى دور رحلاته وأسفاره في توفير أغلب المادة العلمية لهذا المعجم.

وشبيه بالعالمين السابقين رحالة ثالث هو ناصر خسرو الذي ولد في بلدة قاديان بالقرب من بلخ سنة (٣٩٤هـ - ١٠٠٣م) وقد عدل عن حياة اللهو التي عاشها في أول عمره، وعزم على أداء فريضة الحج فمر بنيسابور وبلاد الري وتبريز، وعرج على قزوين وتفليس وميافارقين وآمد وحران، وقصد حلب، وتنقل في عدة مدن على الساحل السوري، وزار مدينة القدس، ورحل إلى مكة لأداء فريضة الحج، عاد بعد ذلك ثانية إلى القدس، ومنها رحل إلى مصر برا، وأقام بها ثمانية أشهر قبل أن يؤدي الحج للمرة الثانية، تلت ذلك عودته الثانية إلى مصر التي أقام بها قرابة عامين،سافر بعدها إلى جدة ومكة، وعبر وسط جزيرة العرب إلى الإحساء ثم البصرة.كان ناصر خسرو دقيق الملاحظة شديد العناية بتقصي الأخبار ورواياتها، مما أثرى رحلته التي وصفها في كتابه (سفر نامة). المليء بالمعلومات عن البلاد التي زارها.

كان أحمد بن فضلان أحد مبعوثي الخليفة العباسي المقتدر بالله إلى ملك الصقالبة المش بن بلطوار، الذي طلب من الخليفة المقتدر بالله أن يرسل له من يعرفه بشرائع الإسلام، ويساعده على بناء حصن يحتمي به من الملوك المناوئين له. رحل الوفد الذي كان به ابن فضلان من بغداد في (١١صفرعام ٣٠٩هـ) الموافق (١١ من حزيران عام ٩٢١م) واتجه ناحية الشمال الشرقي عبر إقليم

الجبال ومنه إلى همذان فالري، وعبر نهر جيحون، ووصل مدينة بخاري، وعبر الصحراء إلى مدينة بلغار على نهر الفولغا، وكانت تقع على مقربة من مدينة قازان في خط يوازي موسكو، وكان وصول الوفد إليها في (١١ نيسان عام ٩٢٢م). وبهذا تكون الرحلة قد استغرقت قرابة (١١ شهرا).

تمكن ابن فضلان خلال الرحلة السابقة من الاطلاع على بلدان عديدة، ومخالطة شعوب كثيرة، كالترك والخزر والروس والصقالبة. وقد سجل مشاهداته وملاحظاته طوال الرحلة بدقة متناهية، عرضها في أسلوب أدبي ماتع، حملته رسالته المعروفة بـ (رسالة ابن فضلان) والتي لا يستبعد تعرض أجزاء منها للاندثار. وتعتبر الأجزاء المتبقية من الرسالة من أهم المصادر عن جغرافية وتاريخ بلاد الصقالية، وما جاورهم من شعوب في ذلك التاريخ، فابن فضلان رحل من آسيا ووصل إلى أوروبا الشرقية ثم عاد إلى آسيا. ومن الآثار والجهود المماثلة لأعمال الرحالين السابقين جهود الرحالين الإدريسي الذي عرف عنه ابتداؤه للأسفار في مرحلة مبكرة من عمره، حيث زار كل من لشبونة وسواحل فرنسا وبعض مدنها، وبريطانيا وآسيا الصغرى وهو لم يتجاوز السنة السادسة عشرة من عمره .وارتحل إلى بالرمو عاصمة صقلية بدعوة من ملكها روجر الثاني، حيث قام الإدريسي بتأليف كتاب يصف مملكة صقلية، كما عمل الإدريسي خريطته المشهورة عن العالم تلبية لرغبة الملك المذكور، وقد نتج عن جولات وخبرة الإدريسي تأليفه كتابه المعروف بـ (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) وألف بعده (كتاب أنس المهج وروض الفرج) كما قدمنا.

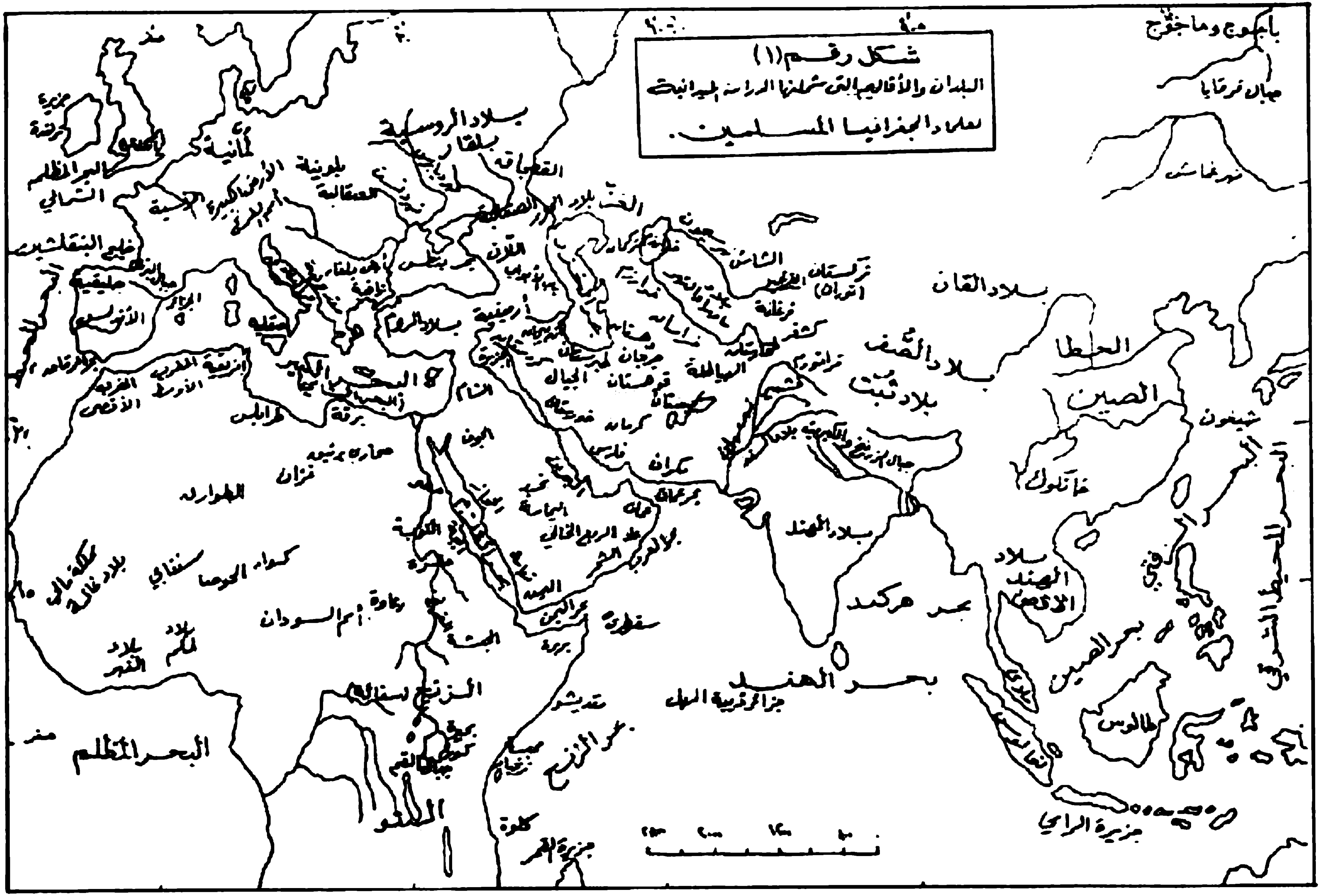
المجموعة الرابعة : تضم، العلماء الذين اقتصرت تنقلاتهم ودراساتهم على قارة واحدة فقط، وينضوي تحت هذه المجموعة ما يقرب من خمسة علماء، قاموا برحلات متعددة ومختلفة الاتجاهات والأهداف وجميعها تمت داخل القارة الآسيوية .

من أول علماء هذه المجموعة أبو زيد أحمد بن سهل البلخي، الذي عرف عنه قلة أسفاره التي لم تتعد رحلته إلى بغداد حيث أقام بها ثماني سنوات، أدي خلالها فريضة الحج، وعرف عنه اهتمامه بالتأليف في عدة فروع، كان من مؤلفاته كتاب " صور الأقاليم " الذي ضمنه فصولا عن عدد من أقاليم قارة آسيا.

يليه أبو دلف الخزرجى الينبوعي، كان شاعرا أديبا ورحالة، عمل فترة من الزمن في حاشية الأمير الساماني نصر بن أحمد في بخارى، ونظرا لما تمتع به أبو دلف من مواهب، كلفه الأمير بالذهاب مرة إلى الهند مصاحبا للوفد الذي قدم منها. مما أتاح له الفرصة فزار كشمير وكابل وسواحل ملبار، كما كلف بالذهاب مرة أخرى إلى الصين مع الوفد الذي عاد إليها أيضا، مما مكنة من زيارة عدة مناطق داخل الصين نفسها، كما زار أرمينية وأذربيجان وإيران، وأمكن حفظ قدر من تجاربه في رسائله التي خلفها.

ومن علماء هذه المجموعة العلامة أبو الريحان البيروني. يعتبر من أبرز علماء التاريخ، وله اهتمامات علمية بعلوم عديدة منها علوم الفلك والرياضة والجيولوجيا، وقدر له أن يقع أسيرا لدى السلطان محمود بن الغزنوي، ثم ما لبث أن عمل في بلاطه، وصحبه في حملاته على شمال غرب الهند. حيث تعلم السنسكريتية.وتنقل في أرجاء واسعة من تركستان وأفغانستان وإيران والهند، وتمكن من تأليف عدة كتب، من أهمها كتابه الشهير (في تحقيق ما للهند من مقولة معقولة في العقل أو مرذولة).

هناك باحث آخر ارتبطت شهرته بالعمل في الوظائف الرسمية، إنه سلام الترجمان (القرن الثالث الهجري)الذي أرسله الخليفة الواثق بالله للاطلاع على الأقاليم الواقعة شمال نهر الفولجا وبحر قزوين، في عملية استكشافيه، كان من أهدافها الاطلاع على سد يأجوج ومأجوج، وفي رحلته هذه عبر أرمينيا و جورجيا وجبال القوقاز، وزار منطقة الخزر، وطاف حول بحر قزوين، وتقدم



شكل رقم (١)
البلدان والأقاليم التي شملتها الدراسات الميدانية لعلماء الجغرافيا المسلمين.

المصدر: محمود عصام الميداني، الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي ص ٥٠.

باتجاه جبال الأورال ومرتفعات التاي، وقد أتيحت له فرصة الوصول إلى بلدان لم تكتشف مسبقا. وقد وصف سلاّم كل الدول التي مر بها من حيث الأحوال الثقافية والسياسية.

ومن الذين أتيحت لهم فرصة الانتقال والترحال داخل آسيا، عبد الكريم محمد التميمي المروزي (ت ٢٧٤هـ - ٨٨٧م) وكان ارتحاله في طلب العلم حيث تنقل بين خراسان وبلاد ما وراء النهر، وقوس الري، وهمذان، وأصبهان، وبلاد الجبل، والعراق، والشام، والحجاز . ألف عدة كتب منها "تاريخ مرو" و"تحفة المسافر"، ومن أشهر كتبه كتاب " الأنساب "

ومن العلماء الذين كتبوا عن القارة الآسيوية وتنقلوا في بعض أقاليمها: زكريا بن محمد القزويني (٦٠٥هـ - ٦٨٢هـ)، رحل وهو شاب من مدينته قزوين إلى دمشق، وتولى قضاء واسط والحلة في زمن المستعصم العباسي، وسافر إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج. وعلى الرغم من أنه كان فقيها وقاضياً، إلا أن ميوله في الكتابة عن البلدان والمخلوقات جعلت كل مؤلفاته تتعلق بالجغرافيا والكائنات، يقول في مقدمة كتابه (آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٥). " أني قد جمعت في هذا الكتاب ما وقع لي وعرفته، وسمعت به وشاهدته من لطائف صنع الله تعالى، وعجائب حكمته المودعة في بلاده وعباده". والذي يؤخذ عليه أنه نقل أخبارا وحكايات كثيرة عن الرواة الذين كانوا يوردون الخرافات والمستحيلات دون تمحيص. ومع ذلك فقد حفلت كتبه بالكثير من الحقائق والمعلومات النافعة، ومنها وصفه لأقسام مدينة قزوين وأنواع استخدامات الأرض في الأراضي المحيطة بها (شكل رقم ٢)، مما يمكن اعتباره نموذجا تطبيقيا لا يقل أهمية عن نظريات علمية أخرى صيغت في هذا الشأن، أمثال نظرية فون تونن (VON THUNEN) الخاصة بتصور استخدام الأرض

في إقليم مدينة وحيدة في دولة منعزلة*. وسبب عدم اشتهار نموذج القزويني، ومن قبله نموذج المقدسي، هو عدم ظهور أجيال أخرى من العلماء المسلمين الذين يعملون على تطوير المفاهيم التي قامت عليها تلك النماذج، والتوسع في إجراء الدراسات التطبيقية لها.

المجموعة الخامسة وتضم أولئك الأشخاص الذين تركز عملهم على الرّحلات البحرية : يقتصر نشاط الرحلات البحرية التي قام بها بعض علماء الجغرافيا المسلمين على عدد قليل من الرحالين، من أبرزهم (برزك بن شهريار الناخداه الرام هرمزي) (ت ٣٤٠هـ) فارسي من إقليم خوزستان، احترف السفر بالبحر وتنقل بين عدة موانى على سواحل المحيط الهندي من الهند الصينية شرقا إلى سواحل إفريقيا الشرقية غربا، وقد ألف كتابا دون فيه ما رآه وما سمع به من التجار والبحارة الذين يثق بكلامهم، وقد وصف أحوال إقليم سفالة الزنج (زنجبار)، و تحدث عن جزائر (واق ألواق) التي يقال بأنها جزر اليابان.

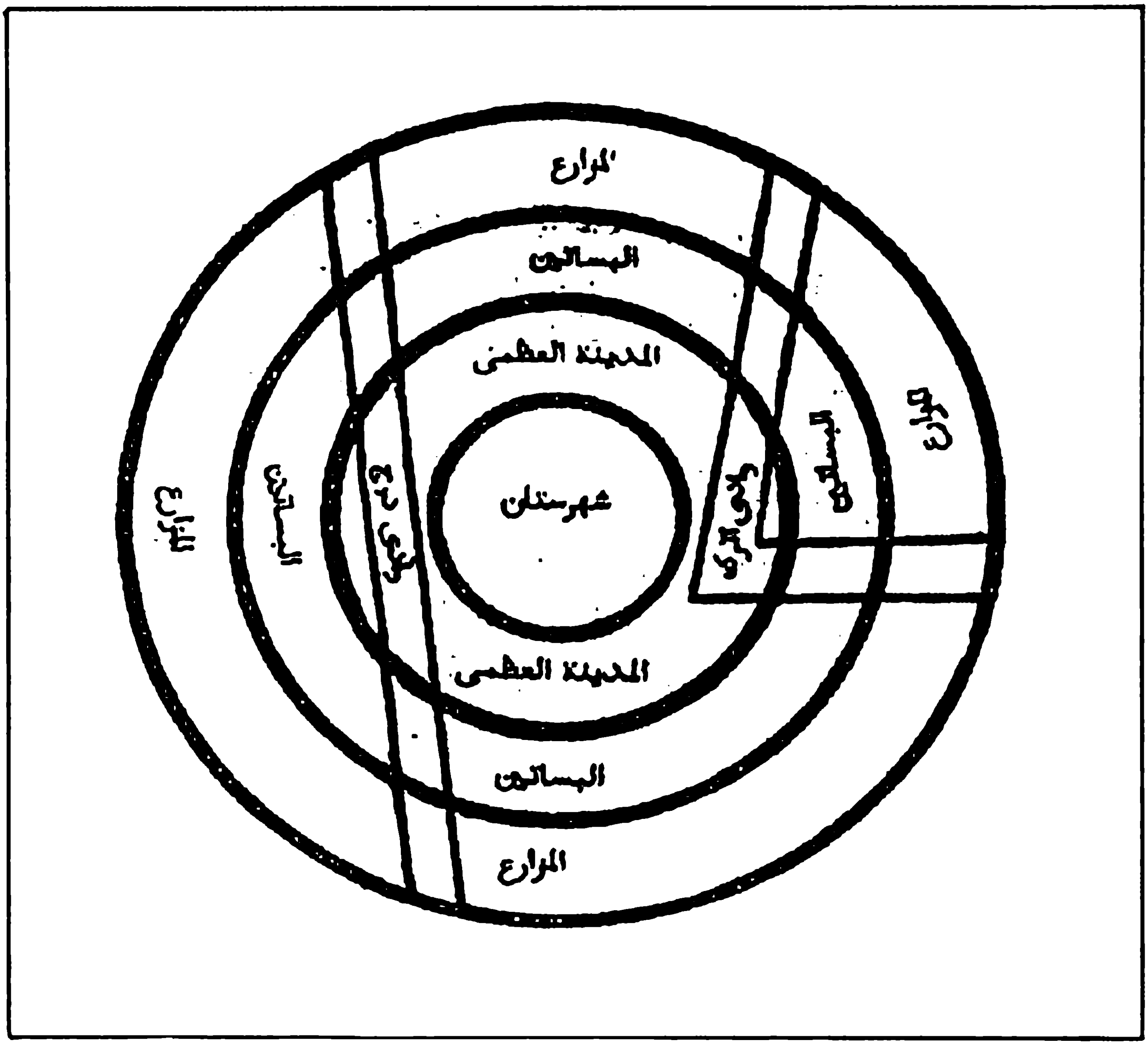
ومن الذين اعتادوا السفر بالبحر ودونوا مذكراتهم عنه: التاجر سليمان، وقد اعتاد التنقل في البحار الجنوبية لآسيا، بحكم مهنته كتاجر بين شرق آسيا ومدن الخليج العربي، وخلف تقريرا عن رحلاته، تحدث فيه عن البحار والجزر الموجودة في المحيطين الهندي والهادي، ويتكلم التاجر سليمان في هذا الصدد عن سبعة بحار، يتم عبورها عند السفر من سيراف إلى الصين وهي: بحر فارس، وبحر لار، وبحر هركند، وبحر شلاهيت، وبحر صنف، وبحر الصين، (علوي، ص ١٤٨).

* قسم القزويني مدينة قزوين والأراضي المحيطة بها إلى أربعة أقسام هي:
أ - المدينة القديمة الصغرى (شهرستان) وهي في الوسط يحيط بها سور خاص بها.
ب - المدينة الكبرى وتحيط بالمدينة الصغرى ويحيط بها سور خارجي.
جـ - الحزام الزراعي الأول ويحيط بالمدينة من جميع الجهات وتشغله البساتين.
د - الحزام الزراعي الثاني ويحيط بالحزام الأول وتشغله المزارع.

يشير كراتشكوفسكي (ص١٥٢) أنه بالرغم من خوف عرب الأندلس من المحيط الأطلنطي الذي اختزن في أذهانهم "ببحر الظلمات" الرهيب، فقد قاموا بمحاولات عديدة للكشف فيه، وينقل عن الإدريسي مقتطفات من أخبار رحلة من لشبونة، قام بها ثمانية شبان أبناء عمومة، لقبوا "بالمغرورين أي (المخاطرين)، عزموا على ركوب بحر الظلمات، ليعرفوا ما فيه وإلى أين ينتهي، وقد كان إبحارهم مع الرياح الشرقية مدة إحدى عشر يوما، إلى موضع صخري مخيف، شديد الظلمة، ثم اتجهوا جنوبا مدة اثني عشر يوما إلى أن بلغوا (جزيرة الغنم)، فأبصروا قطعانا هائلة منها، ثم توغلوا اثني عشر يوما أخرى في الاتجاه نفسه، حتى بلغوا جزيرة أخرى، فأسرهم أهلها وكانوا ذوي بشرة حمراء وشعرهم قليل ناعم وطوال القامة. وعندما بدأ هبوب الرياح الغربية أمر سيد الجزيرة بترحيلهم معصوبي الأعين إلى القارة التي بلغوها بعد إبحار ثلاثة أيام بلياليها، وهناك علموا من البربر أنهم بجنوبي مراكش على مسيرة شهرين من بلدهم وكان موضع نزولهم البقعة التي قامت بها فيما بعد ميناء آسفي، التي قيل إن سبب تسميتها بهذا الاسم مقالة أحد الشبان عندما علم أن الرحلة عادت بهم إلى غرب إفريقيا فقال نادما على عدم تحقيق الرحلة هدفها "أسفي". ومهما ذكر من أقوال بعد ذلك عن هذه الرحلة وصحتها، فإنها كانت على الأقل محاولة عملية للوصول إلى غرب المحيط الأطلسي وكشف ما بعده، وكانت تجربة أفاد منها من كرر المغامرة بعد ذلك أمثال كولومبس وغيره، ومن يعلم فقد يكون سكان الجزيرة ذوي البشرة الحمراء، من الهنود الحمر، سكان أمريكا الأصليين.

شكل (٢)

رسم تخطيطي لمدينة قزوين والأراضي المجاورة لها واستخدامات الأرض بها.



المصدر: محمود عصام الميداني، الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي ص ٥٠.

بعض الصفات الشخصية التي تحلى بها الباحثون الميدانيون

توافرت في العلماء المسلمين العديد من الصفات والخصائص، التي ساعدت كلا منهم على القيام بالرحلة، والتنقل في أصقاع مختلفة من الأرض ـ ذات ظروف طبيعية وبشرية متباينة ـ وجمع المادة العلمية، وكتابة التقرير العلمي عن الرحلة في نهاية الأمر، في شكل كتاب أو بحث أو رسالة، و يمكن التمييز بين عدة أنواع من الصفات التي كونت شخصيات أولئك الرحالين الباحثين وتنقسم إلى صفات: دينية، ونفسية، وبدنية، وثقافية.

ومن الصفات الدينية ماتحلى به العلماء المسلمون من الورع والتقوى والحرص على أداء الفرائض والواجبات الدينية، وكان من أبرز أسباب الارتحال والسفر هو الرغبة في أداء فريضة الحج، بل إن جميع من اطلعنا على مؤلفاتهم وآثارهم العلمية (تقريبا) هم علماء دين بالدرجة الأولى، عملوا على تحري الصدق والأمانة في تدوين ما شاهدوه أو نقلوه عن غيرهم، وهم إلى جانب ذلك دعاة إلى الإسلام، نلمس ذلك في حرص الكثيرين منهم على إنكار المنكرات والبدع التي رأوها في أثناء تنقلاتهم، والأمر بالمعروف كل ما سنحت الفرصة إلى ذلك سبيلا، كما قام الكثير منهم بالتدريس في الحلقات والدعوة في الملتقيات والمنتديات، فابن فضلان، وابن جبير وابن بطوطة وغيرهم قدموا صورا حية لهذا الأمر، إن قيام المقدسي بعمل دراسة علمية عن العالم الإسلام . كان بدافع إنجاز عمل علمي ينتفع به الخلق، ويرجو به رضى الربّ جل وعلا. (المقدسي، ص١٥).

تمتع أولئك العلماء - أيضا - بسجايا نفسية سوية وكريمة قل أن تتكامل عند غيرهم، يستطيع المتأمل أن يتلمسها في كل واحد منهم، وتتضح في كافة

سلوكياتهم وردود فعلهم، في جميع الظروف والمواقف التي مرت بهم . فالصبر أضحى صفة ملازمة لكل منهم مما مكنهم من تحمل المشاق النفسية والبدنية التي اعترتهم، في حلهم وترحالهم، ومن ذلك الصبر على تحمل الغربة والبعد عن الأهل والأوطـــان، لفترات زادت عن ربع قرن لدى البعض منهم. ومن الملاحظ أن الكثير من الرحالين قد توافرت له من المواهب والقدرات والسجايا ما أعتبر سببا في حب الناس له، ومكنته أو دفعت به إلى التنقل والمضي في أسفار بعيدة، لإشباع رغبات حب الاطلاع والبحث والمغامرة أحيانا، بل وإلى تكليفه بمهام رســمية وعلمية قل أن يستطيع أحد غيره للتصدي لها،وفي سيرة كل من (أبو الريحان البيروني، وأبو الحسن المسعودي، وأبو دلف الينبوعي، والحسن بن أحمد الهمداني، وياقوت الحموي) شواهد ظاهرة على ذلك .

شكلت صفة قوة الذاكرة والقدرة على حفظ المعلومات، وحدة الذكاء عناصر مهمة في مكونات الشخصية لأولئك الباحثين، الذين أبقوا لمن بعدهم تراثا علميا زاخرا، شهد بمتانة الحضارة الإسلامية وتطورها، فلننظر إلى ما قاله الصفدي عن شهاب الدين أحمد بن يحي العمري، بعد أن حقق بعض أعمال الأخير، فبعد أن عدد جوانب من نشاطه ونجاحاته في الأعمال التي قام بها قال عنه " فما اطلع على شيء إلا كان مستحضرا لأكثره، وله من الذاكرة إذا أراد ذكر شيء من زمن تقدم كان ذلك حاضرا كأنه مرّ به بالأمس، والذكاء الذي يتسلط به على ما أراد، وحسن القريحة في جودة وسرعة " . (رمضان، ص ٢١٢).

وحيث إن السفر قديما كان يتطلب السير على الأقدام حينا، وركوب الدابة أو السفينة حينا آخر، مع اجتياز مناطق شاسعة المساحة طويلة المسافة، فقد كان جميع الرحالين على مستوى عال من الصحة، وقوة البدن، وسلامة البنية، ويذكر أن مما أعان ابن بطوطة على القيام برحلاته بدن قوي، يتحمل المتاعب ويقاوم الأمراض بصورة تدعو إلى العجب فقد كان يأكل أي طعام -عدا المحرمات-

دون أن يشكو مرة سوء هضم أو تعب، ما عدا مرة واحدة، وكان لا يتخير طعاما بل يأكل ما يجد، وفي أحيان كثيرة نجده يصوم عن الطعام أياما ليصح بدنه إذا ألمّ به سقم، وقد مرض أكثر من مرة في أثناء رحلاته، وأصابته الحمى مرة بعد مرة، وآذاه دوار البحر حتى كاد أن يهلك، ولكنه كان يخرج من هذه المتاعب سليماً بفضل ما آتاه الله من صحة وقوة بنيان، وهو يحدثنا عن كثير من أصحابه ماتوا من الأمراض أو الطعام الفاسد، ونجا هو من الموت برغم مشاركته لهم في أكل هذا الطعام لأنه كان قوي البدن، وقد رزقه الله مناعة يسرت له النجاة من المهالك أكثر من مرة (مؤنس، ص ١٩).

ولا ريب فإن شروع الرحالين العلماء في أسفارهم، كان يتم في مرحلة الشباب في الأغلب مما جعلهم أكثر تحملا لمشاق السفر ومتاعبه. وعن هذا تحدث اليعقوبي فقال: " إني عنيت في عنفواني شبابي، وعند احتيال سني، وحدّة ذهني بعلم أخبار البلدان، والمسافة بين كل بلد وبلد، لأني سافرت حديث السن واتصلت أسفاري ودام تغربي " (اليعقوبي، ص١٩١). وقد بدأ الإدريسي رحلاته وهو في السادسة عشر من عمره.

ويعد تنوع المعارف واتساع مدى الثقافة، والإلمام بلغة أو أكثر سمة غالبة على الكثير من أولئك العلماء، انعكس أثر ذلك على الحصيلة العلمية لكل منهم، وساعدهم ذلك على التغلب على كثير من الصعاب التي قابلتهم، وأتاح ذلك الفرصة للكثيرين منهم في الحصول على أعمال فنية وإدارية، في كثير من البلدان التي أقاموا بها، تتناسب مع ما لدى كل منهم من مواهب وقدرات، كما مكنتهم من ترجمة المؤلفات التي عثروا عليها في البلدان التي تمكنوا من زيارتها، ناهيك عن القدرة على التحدث ـ في أغلب الأحيان ـ مع سكان البلاد التي يتحدث أهلها بلغات غير اللغة العربية، فسلاّم الترجمان كان يتكلم بثلاثين لغة، ولهذا لقب بالترجمان.

ومكن التنوع الثقافي الكثيرين منهم من البحث والتأليف في معارف متعددة، فالمسعودي لم يكن جغرافيا فحسب بل اهتم كذلك بعلم الكلام، والأخلاق والسياسة، وعلوم اللغة. ومما ساعد البيروني على تأليف كتابه (الآثار الباقية عن القرون الخالية) دراساته المتعمقة في الفلسفة والفلك والرياضيات وعلوم اللغة والتاريخ وتقويم البلدان. ويستدل من كتابه (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة) على إلمامه باللغة السنسكريتية، ومعرفته المحدودة باللغة السريانية، واللغة العبرية. إن تنوع المعارف والإلمام بأكثر من تخصص علمي يظهر لدى عدد آخر من العلماء، فعبد اللطيف البغدادي من الرحالين العلماء، اشتهر بمعرفة الطب، فضلا عن تبحره في النحو واللغة وعلم الكلام، وياقوت الحموي لغوي وجغرافي في آن واحد، كما أن القزويني قاض وعالم جغرافيا ومؤرخ أيضا.

وقد أدى التنوع المعرفي لدى العلماء المسلمين إلى تنوع الإسهامات العلمية لدى البعض منهم، فابن سعيد المغربي ألف العديد من المؤلفات الجغرافية وجغرافية الرحلات، وإلى جانب ذلك أعد مؤلفات أخرى في الأدب والتاريخ. وعز الدين بن شداد الحلبي أخرج مؤلفات له في التاريخ والجغرافيا والتفسير.

وعرف عن علماء المسلمين عدم شكوى أي منهم من عوز مالي أو فقر، طيلة فترات تنقلهم في سبيل طلب العلم، أو جمع المعلومات والبيانات عن البلدان التي تصدوا لدراسة أوضاعها الجغرافية والاجتماعية والاقتصادية - باستثناء ما أورده ناصر خسرو عن حالته المالية عند إقامته في واحة الأفلاج وعند وصوله إلى مدينة البصرة قادما من الأحساء - (خسرو، ص ١٧٩). أما بقية علماء الأدب الجغرافي فقد تهيأت لكل منهم المقدرة على توفير متطلبات السفر ونفقات الدراسة، فعدد منهم كان مكتفيا ذاتيا من الأساس إما لغنى أسرته، أو لوفرة ثروته المالية هو، ومن أمثال هؤلاء ابن سعيد المغربي، ومن قبله ابن خرداذبه، على أن من الرحالين من تمكن من توفير متطلباته المالية في أثناء تنقلاته

ورحلاته ومن هؤلاء المسعودي وابن بطوطة، اللذين كان سفرهما بقصد طلب العلم والتعرف على الأقاليم، وقد ساعد هما في الرحلة والاغتراب ما وجد في كل مدينة وبلدة من بلدان المسلمين، من الأربطة والزوايا التي كان الغرض منها إيواء المسافر وابن السبيل، بل إن شخصا مثل ابن بطوطة نظرا لكونه أديبا وفقيها اتبع أسلوب زيارة الأمراء وحكام الولايات وتعريفهم بنفسه، مما جعله محل عنايتهم واهتمامهم، فأغدقوا عليه في أغلب الحالات، الهدايا والهبات، وعملوا على تيسير ترتيبات تنقله حتى أننا نجده في كثير من الحالات ذا ثروة ومال، هذا إلى جانب اشتغاله بالقضاء في عدد من المواقع التي أقام بها في الهند وغيرها.

وهناك فئة أخرى من العلماء والكتاب ممن كانوا يشغلون وظائف رسمية في الدولة منها العمل في القضاء كما هو الحال بالنسبة للقزويني والعمري، أو في أعمال الدواوين كديوان الخراج والإنشاء وغيرهما، كما هو الوضع بالنسبة لأبي الفرج قدامه بن جعفر، الذي كان مسؤولا عن ديوان الخراج في عهد الخليفة العباسي المقتدر بالله. عاش ابن خرداذبة في أسرة ثرية مثقفة، وإلى جانب ذلك تولى إدارة البريد في إقليم الجبال (ميديا) بإيران في عهد الخليفة المعتمد العباسي. ومن الذين عملوا في مناصب رسمية كان الإدريسي الذي عمل في بلاط روجر الثاني ملك صقلية في الفترة من (١١٠١م - ١١٥٤م).

لقد أسهم الاشتغال بالأعمال الرسمية لدى الباحثين السابقين وأمثالهم في تحسن أحوالهم المالية، كما مكنتهم طبيعة أعمالهم من التعرف على كثير من أوضاع البلدان والأقاليم، من خلال مقابلة الوفود الذين يردون منها، كما تمكنوا من زيارة البلدان التي كلفوا بمتابعة أوضاعها، ومن ثم الكتابة عنها وتضمينها في مؤلفاتهم، وكان منهم الموفدون والمبعوثون الرسميون أمثال ابن فضلان، وأبو دلف الينبوعي.

أما الصنف الأخير من علماء الإسلام. فنجدهم استعانوا على توفير

متطلباتهم المالية بالعمل في التجارة، كما استطاعوا بذلك السفر والتنقل في أماكن وأقاليم عديدة، مما زاد من معارفهم وخبراتهم العلمية، فالهمداني من أسرة كانت تحترف نقل الحجاج إلى مكة المكرمة، مما أتاح له كثرة السفر ومقابلة العلماء، وقد أقام بمكة المكرمة لبعض الوقت، ثم سافر إلى العراق على الأرجح واحتك بعلمائها.

جمع ابن حوقل بين طلب العلم والارتزاق من العمل في التجارة في مختلف البلاد الإسلامية التي زارها، طوال مدة تجواله التي استغرقت ثلاثين عاما تقريبا، كما امتهن المقدسي بالتجارة في كل بلد حل به وأقام، ومثلت التجارة العمل الأول لياقوت الحموي، إلى جانب اشتغاله في أوقات أخرى ببيع ونسخ وتجليد الكتب.

إن الناظر إلى ما يتسم به تكوين الشخصية لأي من العلماء المسلمين ليجد أن كلا منهم قد حباه الله شخصية قوية متكاملة ومتزنة، إلى جانب ما أختص به كل منهم من الفطنة وحدة الذكاء وسرعة البديهية وقوة التحمل، الأمر الذي انعكس على أعمالهم العلمية، فكانت أعمالا علمية مليئة بالإبداع والعمق والإتقان والشمولية، مع تحرى الدقة والتثبت في القول والعمل، والأمانة والصدق في الوصف، والحرص على أن تكون أعمالهم، خالصة لله وابتغاء مرضاته.هذا مع وجود بعض المآخذ البسيطة على عدد قليل منهم، أشار إليها المحققون والباحثون، وحرصوا على التنبيه إليها، ومن ذلك ما قيل عن المسعودي من أنه كان سريع التصديق لأغلب ما يروى له، أننا نجده يستدرك، ويحس بأنه لم يتحر الدقة في بعض المعلومات التي جمعها من أسفاره العديدة والمتلاحقة، فنوه إلى ذلك في مقدمة كتابه مروج الذهب حيث قال " على إننا نعتذر من تقصير إن كان، ونتنصل من إغفال أو غرض لما قد شاب خواطرنا وغمر قلوبنا من تقاذف الأسفار، وقطع القفار " (المسعودي، ج١، ص ١)، وقد حرص كثير من علماء المسلمين على

الاعتذار مما يكون قد حصل منهم من تقصير أو خطأ غير مقصود، ويؤكدون على تعذر الوصول إلى الكمال في أي عمل، وثمة مأخذ آخر يتمثل في اهتمام بعض الكتاب بموضوعات الأساطير والغرائب والعجائب، وتضمينها مؤلفاتهم، أو إعداد مؤلفات متكاملة خاصة بها وإيراد تعليلات غير سليمة لبعض الظواهر التي شاهدوها في بعض الأحيان، ومن ذلك ما أورده ابن فضلان من الأحداث الغريبة التي رآها في أول ليلة وصل فيها بلد الصقالية، وكيف أنه رأى أفق السماء وقد احمرت احمرارا شديدا قبيل مغيب الشمس، وأنه سمع في الجو أصواتا وهمهمة عالية، فرأى أشباحا تشبه البشر بأيديهم سيوف. وعند سؤالهم للملك عن ذلك أخبرهم أن أولئك من مؤمني الجن وكفارهم وأنهم يقتتلون في كل عشية (ابن فضلان، ص ٤٤).

الفصل السابع

الصعوبات التي تعرض لها العلماء المسلمون في أثناء تنقلاتهم واجراء دراساتهم الميدانية

توجد العديد من الصعوبات التي اعترضت سبيل عدد من العلماء المسلمين في أثناء قيامهم بعمل دراساتهم الميدانية، وتنقلهم من مكان إلى آخر، داخل حدود الدولة الإسلامية أو خارجها. وهي صعوبات ومعوقات تعد في مجملها قليلة ـ نسبيا ـ بالنظر إلى اتساع مساحة البلدان التي غطتها دراساتهم، وتعدد أقاليمها وبيئاتها، وتباين خصائصها الطبيعية والبشرية.

يمكن تصنيف أهم المعوقات التي عانى منها الباحثون الميدانيون على النحو التالي:

١ - صعوبات السفر عن طريق البحر :

وقد تحدث الرحالون عن كثير من المواقف والمشاهد والأحداث التي اعترضت سير رحلاتهم في أثناء سفرهم بالبحر، وكشفوا عن كثير من المخاطر التي هددت حياتهم في كثير من الأوقات، مثل مقابلتهم للأمواج العالية، والرياح التي تسكن حينا فلا تستطيع المراكب البحرية السير قدما، أو الرياح التي يكون اتجاهها عكس المأمول، أو الأسماك الضخمة التي تشكل مصدر خطر على المسافرين بالبحر ومراكبهم.

يصف المسعودي بعض مصاعب السفر بالبحر فيقول "وقد ركبت عددا من البحار كبحر الصين، وبحر الروم والخزر والقلزم واليمن، وأصابتني فيها من الأهوال ما لا أحصيه كثرة، فلم أشاهد مثل بحر الزنج، وفيه السمك المعروف بالأوال، طول السمكة نحو أربعمائة ذراع إلى الخمسمائة ذراع بالذراع العمري، وهو ذراع أهل ذلك البحر، والأغلب من هذا السمك أن طولهماية ذراع وربما يظهر رأسه، وينفخ

الصعداء في الماء، فيذهب الماء في الجو أكثر من مرمى السهم، والمراكب تفزع منه بالليل والنهار تضرب له بالخشب والدبادب لتنفره من ذلك " (المسعودي، ص ٢٣٤).

ويصف ابن جبير إحدى مصاعب السفر بحرا تلك الناتجة عن العواصف والأمطار التي تتعرض لها البحار وتسبب متاعب للمسافرين فيها، حيث قال: " وفي ليلة الأربعاء بعدها، من أولها (أي من أول الليل) عصفت ريح هاج لها البحر، جاء معها مطر ترسله الرياح بقوة، كأنه شآبيب سهام، فعظم الخطب، وأشتد الكرب، وجاءنا الموج من كل مكان أمثال الجبال السائرة، فبقينا على تلك الحال الليل كله، واليأس قد بلغ منا مبلغه، وارتجينا مع الصباح فرجة يخفف عنا بعض ما نزل بنا. فجاء النهار - وهو يوم الأربعاء التاسع عشر من ذي القعدة - بما هو أشد هولا، وأعظم كربا، وزاد البحر اهتياجا، واربدت الآفاق سوادا، واستشرت الريح والمطر عصوفا، حتى لم يثبت معها شراع، فلجئ إلى استعمال الشّرع الصغار، فأخذت الريح أحدها ومزقته،وكسرت الخشبة التي ترتبط الشرع فيها- وهي المعروفة عندهم بالقرية - فحينئذ تمكن اليأس من النفوس، وارتفعت أيدي المسلمين بالدعاء إلى الله عز وجل وأقمنا على تلك الحال النهار كله، فلما جن الليل فترت الحال بعض فتور، وسرنا في هذه الحالة كلها بريح الصواري سيرا سريعا "(ابن جبير، ص ٤٣).

ويسرد ابن بطوطة ما حدث له في أثناء سفره في بحر الصين، فيقول: " وجدت الجنوك على السفر إلى الهند، وفي جملتها جنك (أي سفينة) للملك الظاهر صاحب الجاوة، أهله مسلمون وعرفني وكيله، وسر بقدومي، وصادفنا الريح الطيبة عشرة أيام، فلما قاربنا بلاد طوالسي تغيرت الريح وأظلم الجو وكثر المطر وأقمنا عشرة أيام لا نرى الشمس، ثم دخلنا بحرا لا نعرفه، وخاف أهل الجنك فأرادوا الرجوع إلى الصين فلم يتمكن ذلك، وأقمنا اثنين وأربعين يوما لا نعرف في أي البحار نحن " (ابن بطوطة، جـ٢، ص ١٧٢).

٢ - صعوبات تتعلق بظروف المناخ :

تحدث الرحالون عن ظروف المناخ وأحوال الطقس في كثير من البلدان التي تمت لهم زيارتها، وقد شكلت ظروف المناخ في بعض الأحيان عقبة حدّت من حرية تحرك الرحالين، ومن المضي قدما في أسفارهم، بل وكانت سببا في توقف تقدم الرحلات الكشفية الإسلامية في بعض المناطق، ولا سيما المناطق ذات المناخات المتطرفة، وهي على وجه الخصوص المناطق المتجمدة وشبه القطبية في الأجزاء الشمالية من قارة آسيا وأوروبا.

تكلم ابن فضلان عن البرد الشديد الذي وجده ـ هو وبقية أعضاء الوفد ـ عند وصولهم إلى بلد الجرجانية، في أثناء سيرهم باتجاه بلاد البلغار، وكيف أن شدة البرودة وحلول فصل الشتاء الذي تكثر فيه العواصف الثلجية أجبرهم على الإقامة بذلك البلد مدة تقارب أربعة أشهر ومما قاله" فأقمنا بالجرجانية أياما، جمد نهر جيحون من أوله إلى آخره، وكان سمك الجمد (الجليد) سبعة عشر شبرا، وكانت الخيل والبغال والحمير والعجل تجتاز عليه كما تجتاز على الطريق(اليابس) وهو ثابت لا يتخلخل، فأقام على ذلك ثلاثة أشهر. فرأينا بلدا ما ظننا إلا أن بابا من الزمهرير قد فتح علينا منه، ولا يسقط فيه الثلج إلا ومعه ريح عاصف شديد ... وتطاول مقامنا بالجرجانية، وذلك أنا أقمنا بها أياما من رجب وشعبان وشهر رمضان وشوال، وكان طول مقامنا من جهة البرد وشدته(ابن فضلان، ص٥ - ص٦) .

وعندما وصل ابن بطوطة إلى بلاد البلغار، أراد التوغل شمالا باتجاه المناطق القطبية في فصل الشتاء حيث يحل الظلام، للتعرف على أرض الظلمة حسب ما يذكر، ولكنه عدل عن ذلك للصعوبات التي حالت دون تحقيق ذلك، ومنها صعوبة السفر بالمناطق المتجمدة، وأهمية توافر الوسائل المساعدة على ذلك مثل العربات التي تجرها الكلاب، يقول هذا الرحالين " وكنت أردت الدخول على

أرض الظلمة والدخول إليها من بلغار، وبينهما أربعون يوما، ثم أضربت عن ذلك لعظم المؤنة فيه، وقلة الجدوى، والسفر إليها لا يكون إلا في عجلات صغار تجرها كلاب كبار، فإن في تلك المفازة الجليد، فلا يثبت قدم الآدمي ولا حافر الدابة فيها، والكلاب لها الأظفار، فتثبت أقدامها في الجليد، ولا يدخلها إلا الأقوياء من التجار الذين يكون لأحدهم مائة عجلة أو نحوها مؤقرة بطعامه أو شرابه" (ابن بطوطة، جـ١، ص٢١٧).

٣ - صعوبات التباين العقيدي والثقافي :

ومن الصعوبات التي قابلت العلماء المسلمين دخولهم بعض البلدان التي لا يدين أهلها بالإسلام، ولا يتحدث أهلها اللغة العربية، أو غيرها من اللغات المألوفة في ديار المسلمين، مما يعني اختلاط الرحالين المسلمين بشعوب ذات حضارات وثقافات مختلفة عن طبيعة الحضارة الإسلامية التي ألفوها، وقد حدث هذا للرحالين الذين وصلوا أطراف العالم المعروف آنذاك في أقصى شرق وشمال قارة آسيا، وفي شمال ووسط أوروبا، وفي إفريقيا جنوب الصحراء.

ويعد البيروني من أكثر الرحالين المسلمين الذين وصفوا دور التباين بين الحضارة الإسلامية وحضارة الهند، في خلق عوائق أمام أي باحث يريد أن يدرس أحوال البلاد والسكان في الهند إذ يقول " يجب أن نتصور أمام مقصودنا الأحوال التي يتعذر استشفاف أمور الهند، فإما أن يسهل بمعرفتها الأمر وإما أن يتمهد له العذر، وهو أن القطيعة تخفي ما تبديه الوصلة، ولها فيما بيننا أسباب، منها أن القوم يباينوننا بجميع ما يشترك فيه الأمم، وأولها اللغة " (البيروني، ص١٧١).

ويبين البيروني أن من خصائص اللغة الهندية استخدام اللفظة الواحدة بعدة معاني بحسب مكانها من الجمل ويقول: الهنود يفتخرون بذلك، في حين يرى هو أن ذلك عيبا في اللغة، ولا تتوقف صعوبة اللغة الهندية على صعوبة التعرف

على قواعد التعريف والاشتقاق والنحو والبلاغة، بل وعلى اختلاف الحروف ومخارجها " بل لا تكاد ألسنتنا ولهواتنا تنقاد لإخراجها على حقيقة مخارجها، ولا آذاننا تسمع بتميزها من نظائرها وأشباهها، ولا أيدينا في الكتبة لحكايتها " (المصدر السابق، نفس الصفحة).ويضيف إلى ذلك قوله "ويصعب علينا التفوه بأكثر كلماتها وأسماءها لافتتاحها بالسواكن" (المصدر السابق، ص ١٧٢).

ويعتبر التباين في الدين من العوائق التي قللت من قوة الاندماج والتعايش بين الرحالين المسلمين وغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى، وحول هذا الأمر يقول البيروني " ومنها: (أي من العوائق) أنهم يباينوننا بالديانة، مباينة كلية لا يقع منا شيء من الإقرار بما عندهم، ولا منهم بشيء مما عندنا "(المصدر السابق، نفس الصفحة). وفي نفس المكان يورد "ومنها أنهم يباينوننا في الرسوم والعادات حتى كادوا أن يخوفوا ولدانهم بنا، وبزينا وهيآتنا ".على أن هذه المعضلة كانت أقل حدة، مع بعض الرحالين المسلمين في مواقع وبلدان أخرى خارج البلاد الإسلامية، فقد أثنى ابن بطوطة كثيرا على حسن تعامل سكان مالي مع الغرباء.

٤ - الصعوبات الأمنية :

وتتمثل فيما تعرض له بعض الرحالين والمسافرين من مخاطر أمنية ولا سيما العلماء والموفدون إلى بعض الممالك والإمارات المجاورة للبلاد الإسلامية، ويزيد من كبر المشكلة اتساع رقعة البلاد التي سار فيها الرحالون، ويضاعف منها مرور المسافرين بأراضي إمارات وممالك متناحرة - في بعض الأقاليم - وكون بعض حكومات البلاد التي مر بها أولئك الرحالون تشك في حقيقة أهداف ونوايا الأشخاص القادمين إليها من الخارج، واتهامهم بالتجسس لصالح مملكات وسلطات أخرى وهكذا.

تعرض ابن فضلان وأعضاء الوفد المرافق له لواحدة من هذه المشكلات

الأمنية، فعند وصولهم إلى بلاد الترك الغزية، استقبلهم أمير الجيش استقبالا حسنا، واستمع إلى خطاب سفير الخليفة إلى بلدان الشمال عموما والذي يتضمن دعوة الحكام في البلاد التي يمر بها الوفد إلى الإسلام، وبعد سماعهم لكتاب السفير(نذير الحرمي) قال للترجمان، أفهم الوفد باني " لست أقول لكم شيئا حتى ترجعوا وأكتب للسلطان بما أنا عازم عليه " يقصد بذلك عند رجوعهم من رحلتهم الموجهة أصلا إلى ملك الصقالية ". ويواصل ابن فضلان سرد قصة ما حدث لهم مع قائد الجيش المذكور، فيقول:" فلما كان في بعض الأيام وجه خلفهم القواد الذين يلونه وهم: طرخان، وينال، وابن أخيهما، وإيلغز، وكان طرخان أنبلهم وأجلهم، وكان أعمى أشل، فقال لهم (أي القائد) إن هؤلاء رسل ملك للعرب إلى صهري المش بن شلكي، ولم يخير لي أن أطلقهم إلا عن مشورتكم. فقال طرخان: هذا شيء ما رأيناه قط، ولا سمعنا به ولا أجتاز بنا رسول سلطان مذكنا نحن وآباؤنا، وما أظن إلا أن السلطان قد أعمل الحيلة. ووجه هؤلاء إلى الخزر ليستجيش بهم علينا، والوجه أن يقطع هؤلاء الرسل نصفين نصفين، ونأخذ ما معهم. وقال آخر منهم: لا بل نأخذ ما معهم ونتركهم عراة يرجعون من حيث جاؤوا. وقال آخر: لا ولكن لنا عند ملك الخزر أسراء فنبعث بهؤلاء نفادي بهم أولئك، فمازالوا يتراجعون بينهم هذه الأشياء سبعة أيام، ونحن في حالة الموت حتى أجمع رأيهم على أن يخلوا سبيلنا ونمضي" (ابن فضلان، ص ١٠٥)

تعتبر الأراضي القليلة أو النادرة السكان، من أكثر الجهات التي تعاني من ضعف المستويات الأمنية، وتتمثل في الأقاليم الصحراوية بالذات، وكانت تسمى في بعض الأحيان بالمفازات، ومنها النطاق الصحراوي والساحلي في شمال إفريقيا، والمناطق الصحراوية في جزيرة العرب ومناطق من هضبة آسيا الوسطى.

كان خط سير ناصر خسرو (في طريق عودته من مكة المكرمة إلى فارس)

باتجاه شرق الجزيرة العربية، وقد تحرك من مكة المكرمة إلى الطائف ومنها إلى مكان يسمى (المطار)، يبعد عن الطائف أحد عشر فرسخا، ثم إلى موضع يقال له (الثريا) ويليه موضع آخر يدعى (الجزع). وهو المحطة الأخيرة للأعرابي صاحب الجمل الذي استأجره ناصر خسرو، وكان هذا الأعرابي أيضا دليلا لناصر خسرو في سفره من مكة المكرمة إلى الموضع المذكور .

يقول ناصر خسرو " ولقد مكثنا في هذا الموضع خمسة عشر يوما نبحث عن خفير نواصل معه رحلتنا، وعرب هذا الموضع قد قسموا الحدود والمراعي بينهم، وقد علمت كل طائفة حدود أراضيها ومراعيها، ولا يستطيع الغرباء أمثالنا عبور الحدود دون خفير تعرفه القبائل، وإلا تعرضوا للنهب وما هو أسوأ من النهب " (خسرو، ص ١٦٣).

ويقول بعد ذلك "وقد مكثنا أياما نتنقل من يد خفير قبيلة عربية ليد خفير آخر، كأننا سلع، وقد كان الخطر يكمن في كل خطوة خطوناها في هذه البوادي الموحشة ولكن الله سلم " (المصدر السابق، ص ١٦٣). وقد أقام ناصر خسرو في واحة الأفلاج أربعة أشهر ينتظر قافلة أو خفيرا يتمكن من اصطحابه وأخيه إلى واحة الإحساء في شرق الجزيرة العربية.

تعرضت القافلة التي كان فيها أحد علماء المسلمين (الهروي)لهجوم مجموعة من رجال(ريكاردوس) أحد قادة الصليبين، في جنوب فلسطين سنة (٥٨٨هـ - ١١٩٢م)، ونتج عن ذلك فقدان الهروي لكتبه، وقد أحزنه ذلك كثيرا، وعندما طلب منه كتابة مذكراته أملاها إملاء، وقال: "و إن جرى فيما أذكره شيء بطريق السهو والغلط، لا بطريق القصد، فأسأل الناظر فيه والواقف عليه الصفح عن ذلك وإصلاح الخطأ، وإيضاح الحق، فإن كتبي أخذها الانكتار ملك الفرنج "، (زيادة، ص ١٥٧).

٥ - التعب البدني ، والمعاناة النفسية :

وهذه صور أخرى من المصاعب والمشاق التي تحملها رحالو الإسلام، وعلماؤهم، الذين تركوا الأوطان والأهل، وانصرفوا عن متع الحياة وملذات الاستقرار، وآثروا الترحال في الأرض وقطع آلاف الأميال سيرا على الأقدام أحيانا، ممتطين ظهور الدواب أو المراكب أحيانا أخرى.رغبة في طلب العلم وإثراء المعرفة الإنسانية.

فالمسعودي يقدم اعتذاره لجميع قرائه إن لاحظوا شيئا من النقص فيما كتبه ويعزو ذلك - إن حصل - إلى متاعب ومشا ق السفر حيث يقول: " إنا نعتذر من تقصير إن كان، ونتنصل من إغفال إن عرض، لما قد شاب خواطرنا وغمر قلوبنا، من تقاذف الأسفار وقطع القفار، تارة على متن البحر، وتارة على ظهر البر، مستعملين بدائع الأمم بالمشاهدة، عارفين خواص الأقاليم بالمعاينة، كقطعنا بلاد السند والزنج والصنف والصين والزنج، وتقحّمنا الشرق والغرب: فتارة بأقصى خراسان، وتارة بوسائط أرمينية وأذربيجان والسّران والبيلقان، وطورا بالعراق، وطورا بالشام ... فسرى في الآفاق، سرى الشمس في الإشراق) (المسعودي، ص ٦-٧).

وابن حوقل يشير إلى بعض معاناته مع السفر فيقول: " وقد ذكرت في آخر كتابي هذا كيف تعاورتني الأسفار، واقتطعتني في البر دون ركوب البحار، إلى أن سلكت وجه الأرض بأجمعه في طولها، وقطعت وتر الشمس على ظهرها ". (ابن حوقل، ص ٤).

كان المقدسي من أكثر الكتاب الذين أسهبوا في إيضاح معاناتهم في أثناء السفر وجمع البيانات، وتحمل مصروفات الرحلة وغيرها (ص١٦)، وأشار إلى أنه لم يبق شيء مما لحق المسافرين إلا وقد أخذ منه نصيبا غير الكدية وركوب

الكبيرة، فقد أشتغل في كل الأعمال ليومن لنفسه مصاريف السفر، التي قال عنها إنه أنفق على رحلاته ما يزيد على عشرة آلاف درهم، وإنه اضطر إلى مصاحبة أناس في السفر متبايني المذاهب والأخلاق. وتعرّض للحبس، وأتهم بأنه جاسوس في بعض البلدان، واتهم بالبدع، هذا إلى جانب بأنه جرب كثير من العادات والأطعمة في البلدان التي تمكن من الوصول إليها والإقامة بها.

٦ - العوز والفقر ونقص المال :

اعتدنا أنه قلما نجد عالما من علماء المسلمين أو رحالة من رحالتهم قد شكى من العوز أو الفقر، أو من نقص الطعام والشراب، لا سيما إذا كان الرحالين شخصا مثل ابن بطوطة، الذي أحسن التعامل مع أغلب الفئات في المجتمعات التي زارها، وأقام بمدنها وبلداتها، حيث اتسم ذلك العالم باتزانه وحسن تعامله مع كل الناس وكسب ثقة الجميع به، بدءا بمقدرته على التعريف بنفسه، ولا سيما للحكام، والكشف عن أهداف رحلته، وخلاصة تجاربه، وهي شروط يجب توافرها في كل باحث ميداني قديما وحديثا، مما أكسبه محبة الناس فيه وتقديرهم له وتعاونهم معه. وقد ساعده في ذلك تفقهه في الدين، وقد تولى القضاء في بعض البلدان التي مر بها. هذا إلى جانب ما سبق لنا ذكره من وجود مئات الأربطة والزوايا التي أنشأها المهتمون في كل مكان خدمة للعابرين من أبناء السبيل وطلاب العلم، والحجاج وغيرهم.

ومع ما سبق فقد وُجد من الرحالين المسلمين من تعرض لحالة الفقر والعوز إما بسبب سفره عبر أقاليم فقيرة أصلا، مثل سفر ناصر خسرو عبر طرق صحراوية في قلب جزيرة العرب لا يملك أهلها إلا أقل القوت. أو للسفر بالبحر والبقاء فوق ظهر السفينة لمدة طويلة لعدم ملاءمة الرياح لسير السفينة. فحول الحالة الأولى يصف ناصر خسرو أحواله المالية عندما كان في بلدة الأفلاج فيقول: "كنت في هذه المدينة على درجة كبيرة من الفقر والبؤس، ولا أملك سوى

سلتين احتفظ فيهما بكتبي، والأعراب في هذه المدينة على درجة كبيرة من الجوع والعري، وتشيع بينهم الأمية، ولا يخرج الرجل منهم إلى المسجد إلا معه سيفه ورمحه، أما الكتاب فلا قيمة له لديهم، ولولا ذلك لبعت السلتين وما فيهما من كتب لأطرد غائلة الجوع" (خسرو، ص ١٦٦).

وفي مكان آخر من مذكراته يقول: "وعندما وصلنا البصرة كنا على حالة من العري والعجز بدرجة جعلتنا نبدو كالمجانين فإننا لم نحسن شعورنا منذ ثلاثة أشهر، فأردنا أن نذهب إلى حمام عام في المدينة وكان الطقس شديد البرودة، ولم تكن لدي ولا لدى أخي أي ثياب جيدة تقي نفحات البرد، بل اكتفي كل منا بإزار مهترئ قديم، خلق بالية لا تستر العورة، هذا كل رأس ما لنا من الدنيا" (المصدر السابق، ص ١٧)

وحول نقص الغذاء لدى المسافرين بالبحر يصف ابن جبير معاناة ركاب السفينة التي كان هذا الرحالين من بينهم، وذلك عند وصولهم إلى جزيرة صقلية، ورغبة مجموعة من الركاب النزول بها، فيقول:

"وبهذا الموضع نزل كثير من البلغريين فائزين بأنفسهم لمسغبة مست أهل المركب لعدم الزاد ونفاده، وحسبك أنا نقتصر على مقدار رطل من الخبز اليابس نتقسمه بين أربعة منا، ونبله بيسير من الماء، فنتبلّغ به، وكل من نزل من البلغريين باع فضلة زاده، فترفق المسلمون بابتياع ما أمكن منه على علاته، وانتهى إلى مقدار خبزة بدرهم من الخالص، فما ظنك بمدة شهرين على ظهر البحر، في مسافة ظن الناس أنهم يقطعونها في عشرة أيام أو خمسة عشر يوما، الغاية فالحازم من أدخل زاد ثلاثين يوما وسائر الناس لعشرين يوما، والخمسة عشر يوما، ومن العجب في الاتفاقات في الأسفار البحرية، أنا استطلعنا على ظهر البحر أهلة ثلاثة أشهر : هلال رجب، هلال شعبان، وهلال رمضان هذا، وفي يوم مستهله مع الصباح أبصرنا أمامنا جبل النار، وهو جبل البر كان المشهور

لصقلية، استبشرنا بذلك . والله تعالى يعظم أجورنا على ما كابدناه، ويختم لنا بأجمل الصنع وأسناه، ويوزعنا في كل حال شكر ما أولاه، بمنه وكرمه ". (ابن جبير، ص ٢٢٢).

ومعلوم أن هذه الرحلة كانت فقط في البحر المتوسط، من مدينة عكا في بلاد الشام إلى جزيرة صقلية، على أن هذا الرحالين يورد أنواعا أخرى من معاناتهم في البحر وأهواله يحسن الرجوع إليها.

الخاتمة

أدرك العلماء والباحثون في مجال الجغرافيا ـ قديما وحديثا ـ أهمية الدراسة الميدانية ودورها في توفير البيانات والمعلومات الجغرافية، ومن هنا كان القيام بالرحلات العلمية، وتنظيم الزيارات الميدانية أسلوبا أتبعه علماء الجغرافيا في مختلف العصور. استطاع البابليون من خلال البحث الميداني تحقيق كشف جغرافي أوصلهم إلى ميديا و جبل طارق غربا، وتمكن قدماء المصريين من معرفة جزء من حوض وادي النيل إلى إقليم النوبة جنوبا، وترد أنباء غير مؤكدة عن قيام جماعة من الفينيقيين البحارة، بالدوران حول قارة إفريقيا في عهد الفراعنة، أما الإغريق فقد توافر لهم من المقومات ما مكنهم من تسيير رحلات كشفية وتجارية إلى مصر جنوبا، ووصلت فتوحات الإسكندر المكدوني إلى الهند شرقا، وتحقق لعدد من بحارتهم التنقل في غرب وشمال غرب أوروبا، وأجزاء من غرب وشمال غرب إفريقيا إلى رأس بالماس.

وعند بزوغ فجر الحضارة الإسلامية، واشتعال جذوة النهضة العلمية في بلاد الإسلام، نجد العناية بأساليب البحث الميداني قد لاقت رعاية من قبل علماء الجغرافيا المسلمين، تفوق كل ما نالته على أيدي الشعوب القديمة، فإلى جانب إقرار علماء المسلمين بأهمية الدراسة الميدانية في التعرف على خصائص البلدان والأقاليم الجغرافية المختلفة، نجد من علماء الإسلام (ياقوت الحموي وغيره) من يرى أن الدراسة الميدانية وسيلة لاغنى عنها لاستكمال المعلومات الناقصة عن الظواهر والمواضع المختلفة، بل وأكثر من ذلك ضرورتها في التحقق من صحة البيانات المتوافرة عن بعض الظاهرات.

توجد عدة أهداف دفعت بعلماء الجغرافيا المسلمين إلى القيام برحلات البحث وإجراء الدراسات الميدانية، من أهمها الرحلة في طلب العلم عامة، والمعرفة الجغرافية خاصة، ومن ذلك تحقيق المعلومات الجغرافية، ومن بين العلماء

من كان دافعه للدراسة والتأليف هو ترك آثار علمية يخلد بها ذكره، ومنهم من أرتحل بهدف دراسة ظاهرة بعينها، وشكلت محبة بعض العلماء لأحد فروع علم الجغرافيا (علم المسالك والممالك) دافعا آخر للبحث في هذا الموضوع، الذي شهد تطورا مشهودا على أيدي علماء المسلمين، وقد كانت بعض المشروعات البحثية فيه تتم بتكليف من قبل بعض الحكام المسلمين لباحثين مبرزين في هذا الجانب.

توافرت للباحثين الميدانيين المسلمين جملة من العوامل التي ساعدت على إنجاح المهام العلمية التي نفذوها، يأتي في مقدمة ذلك، تجانس المجتمع الإسلامي في العقيدة، وتوافر بعض الخدمات الحكومية والأهلية على محاور الطرق، التي كانت مهمتها تقديم المساعدة للمسافرين، كالأربطة ومراكز الإرشاد ونحوها، وأسهم العمل في بعض المناشط ـ كالدعوة والتجارة وخدمات البريد والخراج ـ في نجاح نشاط البحث الميداني الجغرافي على وجه الخصوص.

سلك علماء الإسلام في جمع المادة العلمية ميدانيا، عددا من الطرق والأساليب العلمية المتطورة، التي لا يزال العمل ببعضها إلى وقتنا الحاضر. فأسلوب الزيارة الميدانية لمواقع الظاهرات، وتسجيل الملاحظات عنها- بشكل مباشر - كان أحد الأساليب التي اعتمدها أغلبية الباحثين الميدانيين - كليا أو جزئيا. وقدم علماء الإسلام طرقا مبتكرة وحديثة من طرق جمع المادة العلمية من الميدان، يتمثل ذلك في إعداد أسئلة بعينها تطرح على مجموعة من الناس بغرض استيضاح قضية بعينها، وكتابة تقرير بالموضوع.

لقد تجول علماء المسلمين في مناطق واسعة، فاقت في مساحتها كثيرا مساحة الرقعة التي شملتها دراسات وتنقلات رحالة وعلماء الأمم السابقة. فقد شملت مناطق تجوال ودراسات العلماء المسلمين كل بلاد الإسلام، يضاف إلى ذلك كل مناطق شرق وجنوب وغرب القارة الأوروبية، وعمت كل أراضي القارة الآسيوية باستثناء أقصى شمالها وجزر اليابان في شرقها، على الرغم من أن المعلومات عن

تلك الجهات أضحت وافرة لدى علماء المسلمين، وامتدت رقعة الكشف الإسلامي إلى أجزاء واسعة من إفريقيا جنوب الصحراء، وساحل القارة على المحيط الهندي حتى مدغشقر ورأس كرينتس قرب مدار الجدي، كما غطت الرحلات البحرية الإسلامية نطاقا أوسع في شمال غرب القارة حتى منطقة سيراليون (تقريبا)، وعلى الرغم من وصف الشبان المسلمين من الأندلس (الذين قرروا التوجه غربا في المحيط الأطلسي بهدف كشف ذلك المحيط وما بعده) بالمغرورين، إلا أنهم في الواقع غير ذلك، فهم قد لفتوا الأنظار إلى أهمية توجيه الكشف الجغرافي نحو الجزء الغربي من العالم، وقدموا تجربة عملية ومهمة في هذا الشأن، أفاد منها كل من كرر نفس التجربة بعدهم مثل كولومبس.

تمكن الرحالون المكتشفون من الجغرافيين المسلمين، من جمع مقدار ضخم من المعلومات والبيانات الميدانية، عن البلاد التي قاموا بزيارتها ودراسة الظواهر الموجودة بها واشتملت تلك المعلومات على حقائق بالغة الأهمية بالنسبة للعلم، وقادت عملية التأمل والفحص الميداني إلى تمكن بعض الرحالين من رسم صور ونماذج تمثل الواقع، وقامت على غرار بعضها نظريات علمية في وقتنا الحاضر، فنموذج استخدام الأرض حول مدينة قزوين الذي عرضه القزويني، ونموذج مراتب وأحجام المدن الذي وضعه المقدسي هما بمثابة نظريات علمية سبقت بوقت طويل ما ظهر من نماذج ونظريات في ذات المجال في الوقت الحاضر.

اكتنفت العمل الميداني والترحال في سبيل طلب العلم، وتوسيع دائرة المعلومات التي قام بها علماء المسلمين بعض الصعوبات والعقبات، التي وجدت لديهم الحل المناسب لها في أغلب الحالات. تصنف تلك الصعوبات إلى صعوبات وعوائق طبيعية تتمثل في قسوة المناخ ووعورة الأرض، وطول مسافات السير والرحلة، والتنقل بين أقاليم متفاوتة في خصائصها الطبيعية وإلى حد ما البشرية، وهناك صعوبات أخرى لا ترتبط بظروف البيئة الطبيعية، عانى منها

الرحالين وطلاب البحث العلمي الميداني آنذاك. يأتي في مقدمتها تباين اللغات بين الأقاليم التي شملتها أعمال الزيارة والبحث الميداني وحاجة الدارسين إلى تعلم أكبر عدد منها، ليتحقق لهم ما جاؤوا من أجله وهو معرفة خصائص الأقاليم الطبيعية والبشرية، ويعد التباين الحضاري بين بلاد الإسلام والبلاد التي لا يدين أغلب أهلها بالإسلام من أهم العوائق التي اعترضت سبيل الباحثين المسلمين.

شكلت حالة اختلال الأمن في بعض الجهات مشكلة أخرى عانى منها بعض الرحالين ولا سيما في الأقاليم القليلة أو النادرة السكان، وحيث لا تترسخ سيطرة الحكومات، وتعرض بعض الرحالين، إلى الريبة والشك فيه من قبل سكان البلاد التي تمت زيارتها، واتهم البعض منهم بالجاسوسية، ومن المشكلات التي تعرض لها بعض الرحالين والمسافرين من الباحثين في بعض الأوقات والأماكن مشكلة نقص المال ونفاذ الماء والغذاء والكساء، وفي كل الحالات نجد الرحالين ينجحون في التغلب على كثير من الصعاب التي تواجههم، بتوفيق من الله، ثم بفضل ما توافر لديهم من خصائص وصفات لازمة لكل باحث ميداني، ومنها الصبر وقوة التحمل البدني والنفسي، واحتساب العمل الصالح عند الله، وابتغاء الأجر والمثوبة منه جل وعلا.

قائمة المراجع

المراجع العربية

١ - ابن بطوطة، أبو عبدا لله محمد بن عبدا لله بن محمد إبراهيم اللواتي.(١٣٨٣هـ -١٩٦٤م) : :رحلة ابن بطوطة . تحقيق نخبة من الأدباء ـ المكتبة التجارية الكبرى، مصر .

٢- ابن جبير، أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي البلنسي. (بدون تاريخ نشر): رحلة ابن جبير، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

٣- ابن حوقل، أبي القاسم. (١٩٣٨م):كتاب صورة الأرض.ط ٢، دار صادر، بيروت.

٤- ابن خرداذبه، أبي القاسم عبيد الله بن عبدا لله (١٨٨٩م): المسالك والممالك. مطبعة بريل، ليدن

٥- ابن رسته، أبي علي أحمد بن عمر. (١٨٩٣):كتاب الأعلاق النفيسة. مج ٧، مطبعة بريل، ليدن

٦- ابن سعيد المغربي . (١٩٥٨م): كتاب بسط الأرض في الطول والعرض، تحقيق خوان ڤرنيط خينيس، معهد مولاي الحسن، تطوان.

٧- ابن فضلان، أحمد بن فضلان بن العباس. (بدون تاريخ): رسالة بن فضلان. تحقيق سامي الدهان، دار صادر، بيروت.

٨- أبو الفدا، عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر. (١٨٤٠م): كتاب تقويم البلدان. تحقيق رينو، والبارون ماك توكين ديسلان، دار الطباعة السلطانية، باريس.

٩- البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد. (١٤٠٢هـ -١٩٨٣م): في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة. ط٢، عالم الكتب، بيروت.

١٠- أحمد، نفيس. (١٢٩٨هـ - ١٩٨٧م): الفكر الجغرافي في التراث الإسلامي، تُرجمة فتحي عثمان. ط، دار القلم، الكويت.

١١ـ الحموي، شهاب الدين ياقوت بن عبدا لله. (١٩٩٥م) : معجم البلدان .ط٢، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت.

١٢ـ الحميري، محمد عبد المنعم.(بدون تاريخ): الروض المعطار في خير الأقطار.(بدون دار نشر).

١٣- حميدة، عبد الرحمن. (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م): أعلام الجغرافيين العرب، دار الفكر، دمشق.

١٤- خصباك،شاكر.(١٩٧٩م) :كتابات مضيئة في التراث الجغرافي العربي. مطبعة دار السلام، بغداد.

١٥- ـــــــ. (١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م): تطور الفكر الجغرافي. مكتبة الفلاح، الكويت.

١٦-رمضان أحمد (بدون تاريخ): الرحلة والرحالين المسلمون. دار البيان العربي، جدة.

١٧- زيادة، نقولا. (١٩٨٢م): الجغرافية والرحلات. ط٣، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت .

١٨- سارتون، جورج . (١٩٥٧م): تاريخ العلم - العلم القديم في العصر الذهبي، ترجمة مجموعة من العلماء، القاهرة.

١٩ـ شريف، شريف محمد.(١٩٦٩م):تطور الفكر الجغرافي ج١، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة

٢٠- علوي، س.م ضياء الدين.(١٤٠١هـ -١٩٨٠م): الجغرافيا العربية في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، (الثالث والرابع الهجريين) تعريب:عبدا لله يوسف الغنيم، طه محمد جاد. الكويت.

٢١- القّرا، محمد علي. (١٤٠٧هـ -١٩٨٧م): الفكر الجغرافي في العصور القديمة والوسطى .مكتبة الفرح، الكويت.

٢٢- القزويني، زكريا بن محمد بن محمود.(١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م): آثار البلاد وأخبار العباد. دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت.

٢٣- كراتشكوفسكي، اغناطيوس يوليا نوفتش .(١٤٠٨هـ -١٩٨٧م): تاريخ الأدب الجغرافي العربي. ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، ط ٢ / دار الغرب الإسلامي، بيروت.

٢٤- محمدين، محمد محمود.(١٤١٤هـ - ١٩٩٣م): التراث الجغرافي الإسلامي. دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض.

٢٥ ـ المروزي، أبي معين الدين ناصر خسرو القبادياني. (١٤٠٣هـ -١٩٨٣م): سفرنامة (رحلة ناصر خسرو القبادياني). جامعة الملك سعود، الرياض.

٢٦- المقدسي، أبو عبدا لله محمد بن أحمد البشاري. (١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٧- الملا، أحمد علي (بدون تاريخ): أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية،

٢٨- مؤنس، حسين (بدون تاريخ): ابن بطوطة تحقيق ودراسة وتحليل. دار المعارف، القاهرة.

٢٩- مؤنس، حسين. (١٩٨٠م): ابن بطوطة ورحلاته تحقيق ودراسة وتحليل. دار المعارف، القاهرة.

٣٠- الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب. (١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م):صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي. مراجعة حمد الجاسر، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض.

٣١- هونكه، زيغريد. (١٤١٣هـ -١٩٩٣م): شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضون، وكمال دسوقي. ط٢، دار الآفاق الجديدة، بيروت.

٣٢- اليعقوبي، أحمد أبي يعقوب بن واضح الكاتب. (١٨٩٣): كتاب البلدان. مطبعة بريل، ليدن.

المراجع الأجنبية

1- ALAVI . S.M. ZIAUDDIN , (1966) : GEOGRAPNY IN THE MIDDLE AGES . STERLING PUBLISHERS. (P) LTD .

2- ALI. S.M. (1960) : ABAB GEOGRAPHY . INSTITUTE OF ESLAMIC STUDIES . MUSLIM UNIVERSITY. ALI GARH.

3- BEAZLEY . C. RAYMOND. (1946) : THE DAWN OF MODERN GEUGRAPY. VOL, I . PETER SMITH . NEW YORK.

سلسلة إصدارات وحدة البحث والترجمة

١ - تقلبات المناخ العالمي	عرض وتعليق: أ.د. محمد صفي الدين أبو العز
٢ - محافظة الجهراء	أ.د. زين الدين غنيمي
٣ - تعدادات السكان في الكويت	أ.د. أمل العذبي الصباح
٤ - أقاليم الجزيرة العربية الكتابات العربية القديمة والدراسات المعاصرة	أ.د. عبدالله يوسف الغنيم
٥ - أشكال سطح الأرض المتأثرة بالرياح في شبه الجزيرة العربية	أ.د. عبدالله يوسف الغنيم
٦ - حول تجربة العمل الميداني لطلاب الجغرافيا بجامعة الكويت	أ.د. صلاح الدين بحيري
٧ - الاستشعار من بعد وتطبيقاته الجغرافية في مجال استخدام الاراضي	أ.د. علي علي البنا
٨ - البدو والثروة والتغير:	
دراسة في التنمية الريفية للإمارات العربية المتحدة وسلطنة عمان	ترجمة د. عبد الاله أبو عياش
٩ - الدليل البحري عند العرب	حسن صالح شهاب
١٠ - بعض مظاهر الجغرافيا التعليمية لمقاطعة مكة المكرمة	د. ناصر عبدالله الصالح
١١ - طرق الملاحة التقليدية في الخليج العربي	حسن صالح شهاب
١٢ - نباك الساحل الشمالي في دولة الكويت دراسة جيومورفولوجية	د. عبدالحميد أحمد كليو د. محمد اسماعيل الشيخ
١٣ - جغرافية العمران عند ابن خلدون	د. عبد العال الشامي
١٤ - السمات العامة لمراكز الاستيطان الريفية في منطقة الباحة	د. محمد محمود السرياني
١٥ - جزر فرسان دراسة جيومورفولوجية	د. محمد سعيد البارودي
١٦ - جوانب من الشخصية الجغرافية للمدينة المنورة	د. محمد أحمد الرويثي

سلسلة منشورات وحدة البحث والترجمة

١- بيئة الصحاري الدافئة — ترجمة : أ . د . علي علي البنا
٢- الجغرافيا العربية — تعريب وتحقيق : د . عبدالله يوسف الغنيم — د . طه محمد جاد
٣- مدن مصر وقراها عند ياقوت الحموي — د . عبدالعال الشامي
٤- العالم الثالث : مشكلات وقضايا — ترجمة : أ . د . حسن طه نجم
٥- التنمية الزراعية في الكويت — أ . د . محمد رشيد الفيل
٦- القات في اليمن : دراسة جغرافية — د . عباس فاضل السعدي
٧- هيدرولوجية الأقاليم الجافة وشبه الجافة — تعريب : د . سعيد أبو سعدة
٨- منتخبات من المصطلحات العربية لأشكال سطح الأرض — أ . د . عبدالله يوسف الغنيم
٩- البلدان اليمانية عند ياقوت الحموي — تحقيق القاضي إسماعيل الأكوع
١٠- المدن الجديدة بين النظرية والتطبيق — د . أحمد حسن إبراهيم
١١- الأبعاد الصحية للتحضر — ترجمة : أ . د . محمد عبدالرحمن الشرنوبي
١٢- التطبيقات الجغرافية للاستشعار من بعد : دليل مراجع — د . صبحي المطوع
١٣- قواعد علم البحر — حسن صالح شهاب
١٤- الانسياق الرملي وخصائصه الحجمية بصحراء الدهناء على خط الرياض ـ الدمام — مشاعل بنت محمد بن سعود آل سعود
١٥- التخطيط الحضري لمدينة الأحمدي وإقليمها الصناعي — د . وليد المنيس ـ د . عبدالله الكندري
١٦- كيف ننقذ العالم — تعريب : أ . د . علي علي البنا — أ . د . زين الدين عبدالمقصود
١٧- أودية حافة جال الزور بالكويت تحليل جيومورفولوجي — د . عبدالحميد كليو
١٨- الألواح الجيولوجية ونظمها التكتونية — ترجمة : أ . د . حسن أبو العينين
١٩- جيومورفولوجية منطقة الخيران جنوب الكويت — د . السيد السيد الحسيني
٢٠- الشوالب في تحقيق الفوائد في أصول علم البحر والقواعد لابن ماجد — حسن شهاب الدين
٢١- التحضر في دول الخليج العربية — د . خالد محمد العنقري
٢٢- جغرافية العالم الثالث — تعريب : د . حسن طه نجم — د . مكي محمد عزيز
٢٣- الصور الجوية ـ دراسة تطبيقية — د . خالد العنقري
٢٤- جيومورفولوجية منخفض أم الرمم بالكويت — د . عبدالحميد كليو
٢٥- جيومورفولوجية منطقة كاظمة — د . محمد إسماعيل الشيخ
٢٦- السرحات السلطانية — د . عبدالعال عبدالمنعم محمد الشامي
٢٧- اليابانيون الأمريكيون — د . عبدالله بن ناصر الوليعي
٢٨- بحار الرمال في المملكة العربية السعودية — د . عبدالله بن ناصر الوليعي
٢٩- كفاءة الري وجدولة المياه في منطقة الخرج بالمملكة العربية السعودية — د . نورة بنت عبدالعزيز آل الشيخ
٣٠- البحث الجغرافي في دولة الكويت — أ . د . عمر الفاروق السيد رجب
٣١- الطرق والمسالك الشرقية لمصر في العصر الوسيط — أ . د . عبدالعال عبدالمنعم الشامي
٣٢-تطور التعدادات السكانية بدولة الكويت . — أ .د . أمل يوسف العذبي الصباح
٣٣-تغيرات مستوى سطح البحر خلال البلايستوسين وآثارها الجيمورفولوجية على طول الساحل الشرقي للبحر الأحمر. — د . محمد سعيد البارودي
٣٤- سجل الزلازل العربي «أحداث الزلازل وآثارها في المصادر العربية» — أ .د . عبد الله يوسف الغنيم